نوتنغهام

في علبة لشمانيا

رواية: توتنغهام في علبة لشمانيا

تأليف: قصي الشيخ عسكر

الطبعة الأولى: ٢٠٢٠م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إصدار: مؤسسة المثقف العربي، سيدني – أستراليا

نشر وتوزيع: دار أمل الجديدة، دمشق – سوريا

ISBN: 978-9933-653-68-2

Almothaqaf Arabic Association

almothaqaf@almothaqaf.com

سورية - دمشق

جوال ٠٠٩٦٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦ - ٠٠٩٦٣٩٣٢٠٠٢١٢٦-

هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٧٧٤٢٩٢

قصي الشيخ عسكر

نوتنغهام

في علبة لشمانيا

رواية

مؤسسة المثقف العربي

دار أمل الجديدة

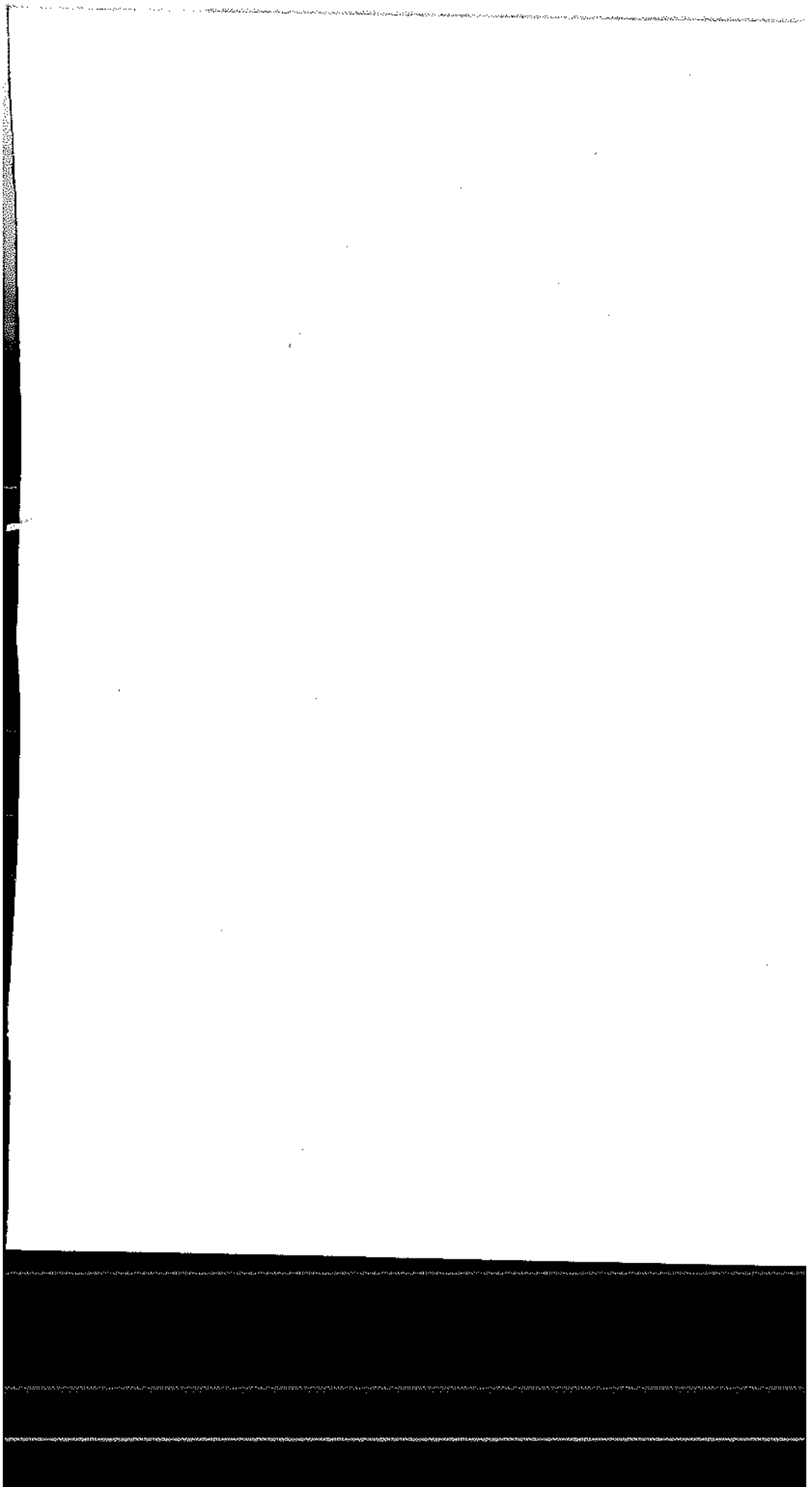

١

كلّ شيء إذن كان يجري بشكل آخر..

وفق ترتيب مختلف تماما.. لا نقص فيه ولا تحوير!

عن يمينه تقلصت غابة لأشجار الكستناء البريّ الضخمة والزيزفون، فيمتدّ منها موقف واسع للسيارات، مرحاض لذوي الاحتياجات الخاصة، وبناية ليست بذات علوّ تلوح عند نهاية الموقف من أقصى الجنوب. إنه الترام الذي شقّ نوتنغهام نصفين. فياله من زمن بعيد يعيد نفسه بوجه آخر. قيل له بعد كلّ تلك السنين إنه يستطيع أن يستقلّ الحافلة إلى "هايسن كرين" أو الترام الذي يتوقف في "فورست فيلد". الخارطة بين يديه ولم تكن مثلما بدت له قبل ربع قرن. نوتنغهام تغيرت ولم تتغير. أصبحت أكثر حيوية وخمولا. كان يتلفت حوله فيراها تتبدل وتعود إلى صورتها.. هو أيضا قدم إليها ذات يوم يحمل حبة بغداد.. مشروع جديد ينبض بالحياة.. شهادة عليا من جامعة نوتنغهام.. حينها على الرغم من كل المنغصات لم يعترضه عائق.. لم يساوره خوف أو يفكر بالبقاء-كما فعلها آخرون- وإن مرت على الحرب أربع سنوات، ولو عرف الغيب لقضى أيضا على نفسه أن يعيش سنوات ثلاثا في أتونها، ربما خالها كما يظن الآخرون لا تنتهي.. أيسمي ذلك عبثا؟ لكنه يقدر أن يختصر عقودا

ثلاثة في حكاية قصيرة.. أمر واقع لا يحب أن يتمرد عليه مثلما هو الحال الآن حيث وجد خطواته تسير باتجاه واحد يعرفه قبل دقائق أو سنوات..

تابع سيره وهو يهبط إلى "كريكوري بوليفارد". معالم جديدة.. أربع سنوات شدّته إلى تلك الشوارع والمحلات حتى انطبعت تماما في ذهنه إلى هذه اللحظة.. قد يتوقف الزمن وينطلق فجأة ليلتهم الدقائق والسنوات، لو لم يُبلَّغ- بعد كل تلك العقود الثلاثة المُرَّة- بالسفر لما تردد في أن يحاول أن يأتي بطريقة ما. لا بدّ من أن يأتي ليتابع كائنا غير مرئيّ تركه هنا في هذه المدينة قبل أن يعود للخراب والحرب والحصار. وكان عليه ثاني يوم لوصوله بعد كل تلك السنوات أن يقصد (هايسن كرين) كما لو أنه يبدأ من جديد. استدار نحو "رادفورد" الشارع الذي اشتغل فيه للمرة الأولى في حياته. لقد كان على حق تماما. مدينة توسعت ولا تتكر أصدقاءها القدامى.. تبدو بوجه آخر ومسحة أخرى ترتسم عليه من الجدة لكن لانشاز، وسيمشي الخطوات نفسها التي مشاها تلك الليلة. يرى محلات جديدة خمسا أو أربع محلات.. حلاقة. مطاعم.. دكاكين حتى يصل مطعم البتزا فيجد مكانه مكتبا للسفريات.. خطوط كردستان.. مطعم كردستان، هي المرة الأولى التي يعمل فيها.. لاشيء هناك في العراق غير الانهماك في الدرس حتى حصوله على البعثة.. والإعلان في الصحيفة التي أمامه يدعوه لعمل مساء الجمعة والسبت.. مطعم بتزا في (هايسن كرين)..

يُعِدُّ سَلَطَةً.. ينظف المحلّ، وساعةً يوزع المنشورات على البيوت القريبة. يمكن أن يتجاهل الآن ما سمعه من قبل، قال له أبوه أدرس.. أدرسوا.. أحصلوا على شهادات ولا تفكروا بالعمل.. أنا سأتحمل كلّ العبء. وهنا في نوتنغهام يقول لهم زميلهم مسؤول المنظة أدرسوا الدولة تتكفل بكلّ شيء، والإعلان نفسه يثير غريزته. العمل شيء جديد ليجربه.. شهر شهرين.. معنى ذلك يظلّ الأمر سِرًّا إلا إذا كشفته المصادفة، قضية الشغل يومي العطلة أيضا تظل خفية حتى عن عبد العال أقرب الاصدقاء إليه، فليصف الآخرين بصفاتهم الحقيقية أو المبهمة، إن عبد العال بآرائه الغريبة وفلسفته الواضحة المتناقضة أحيانا لايعدو كونه رفيق دراسة التقاه في نوتنغهام، صديقته جزائرية تدرس الطب البيطري. فلتكن قضية العمل في طي الكتمان إلا إذا ذهب ذات يوم إلى بيتٍ ما وبيده رغيف بتزا فيفاجؤه أن ساكن البيت أحد الرفاق عندئذٍ يصبح لكل حادث حديث.

وقد وجد نفسه يعبر المدرسة الباكستانية إلى الشارع الضيق، فتجاوز عند التقاطع روضة أطفال. الدروب الفرعية كما هي لم تخلع ثيابها أوتغير أسماءها.. لوحاتها القديمة احتفظت بنكهتها.. مطعم الفردوس.. كان سوبر ماركت "المدينة" وحده يبيع اللحم الحلال ثم "الفردوس" عليك يانادر أن تحذر حين تدس المنشورات في فتحة أيّ باب.. ربما ينهش أصابعك كلب ما.. خطا يتجول في الشوارع يلقمها المنشورات.. سمع نباح كلب وكان حذرا.. ثم تجول في "فورست رود

ويست" ولم يعرف أن القدر وحده سيجعله يقف أمام بابٍ يعود إليه في يومٍ آخر..

أو بعد ثلاثين عاما..

وعبر ممر الحديقة إلى الباب ثم دس منشورا في فتحة الرسائل.. وهاهو فورست رود" يسقط بعد ربع قرن " بين قدميه.. لقد رنّ هاتف المحل عصر ذات مساء خريفيّ.. الشمس مازالت تهبط وعيناه تراقبان الشارع من زجاج الواجهة.. ترك السّكّينةَ وحبات البندورة والخسّ جانبا ثم صعد لنداء أنجم:

لا داعي لأن أذهب بالسيارة.. اتركْ كلّ شيء وخذ البتزا إلى هناك.

تطلع في الورقة فاتسعت ابتسامة على شفتيه:

راد فورد.. شارع البغاء أوكي ليس العنوان ببعيد.

طيب حدّث خطاك لئلا تبرد التوصيلة، ولا تنس أن تأخذ منها ثلاث باونات..

حدّث خطاه ومرق ثانية من بين الشوارع الفرعية.. شارع البغاء كلمة مثيرة.. اسمه شارع البغاء هكذا سماه أنجم والآخرون، شارع القحاب لكن لتكن أية تسمية، فالخطوات إلى درب الحرام قصيرة، ومازالت البتزا ساخنة وقد طالعه عند الاستدارة أمام البيت امرأة في بداية العقد الرابع تصرخ بوجه شاب في العشرين فرّ سريعا وهو يضحك:

الباون والنصف أيّها المخنّث أعطها لأمّك..

البيت نفسه السادس من المنعطف. العنوان ذاته لكن المرأة ظلّت تخاطبه كأنها تشبع رغبتها في الثرثرة:

ليلعق بظر أمه هذا ابن الكلب.. أقول له عشرة باونات عشرة لن تنقص بنساً واحداً يقول ممكن باوند ونصف ابن الكلبة twat أمك son of bitch

لو سمحت هذه البنزا.

التفتت إلى الرزمة بيده، وقالت حيث تلاشى غضبها في لحظات واتسعت تقطيبة وجهها عن ابتسامة وانشراح:

آسفة.. يبدو أنها إلى "جوستينا" دلفت داخل البيت وبعد لحظات أطلت فتاة في في الخامسة والعشرين من عمرها طويلة شقراء تتضح بياضا وفتنة، تفوح من خديها رائحة عبقة، وفي شفتيها ابتسامة عذراء.. كلُّ مافيها متناقض ولا تبدو عليها للزائر الغريب أية ريبة، هي طِيبة غير مفتعلة من البغايا. هكذا سمع عنهن في عالم البصرة حيث الكبت والعرف الصارم، لكنه جاء لهذا الوجه الجميل بحبة بغداد. أستاذه في قسم البايلوجي نصحه أن يختار موضوعا حيويا لم يسبقه إليه أحد، وخطر في ذهنه أن يكون موضوعه اللشمانيا، حملها من البصرة وجاء يطاردها في مختبر جامعة نوتنغهام. يا ترى أين يضعها في خدِّ جوستينا اليمين أم الخد الآخر قرب الأنف أم أبعد. مازال مفتونا بوجهها مبحرا لحظات مع عينيها وهي تمد يدها إليه بالنقود:

شكرا لك.

العمل والجنس محظوران عليه سنوات طويلة. أحدهما انهار أمام الإعلان والبخشيش، ثلاثة باونات ونصف. خمسون بنسا بخشيشا، بعدها اعتاد أنجم أن يوصل الطلبات البعيدة بالسيارة ويتركه يوصل الرزمات القريبة من بتزا وشاورما، فيألف شوارع هادئة وأخرى صاخبة، وفي باله خاطر أن يمتنع أحدهم من أن يدفع له فضلا أن يعتدي عليه.. كل شيء محتمل.. وها هو يقبض أول مكافأة له من بغي قبل أن يستلم أجر اليوم من صاحب المحل ولن يخبره عن الخمسين بنسا.. عالم جديد.. حياته توزعت بين الدراسة واللعب.. الابتدائية والثانوية ثم الجامعة. يأخذ أجره من والده كل تلك السنين. فأي شيء تغير سوى أن أول مكافأة حطت على راحة يده من مكان مشبوه، وكأنه في شك مما يرى:

ياسيدي ثلاثة جنهيات..

لم يشغله كثيرا نصف الجنيه بل كان يتحسس جيبه ليتأكد من العنوان ورقم الهاتف فيحتفظ به إلى حين!

٢

وصل السكن المشترك وقد جاوزت الساعة منتصف الليل، في جيبه بضعة جنيهات ونصف.. وسوف ينعم بنوم هادىء ليستفيق متأخرا يوم الأحد فيجد شريكيه يملآن الشقة مع صديقتيهما حركة وحيوية. فريدريك ذوالأصول الالمانية الذي يحمل الجنسية البريطانية لا يثير استغرابه منذ أن ضمهم السكن في هذه الشقة وهو يلازم صديقة واحدة لا يغيرها وربما لا يفكر أن يستبدلها على الأقل في السنوات القادمة. تيموثي وينادية الآخرون تيم أمريكي مغامر من نوع آخر.. لا يستدعي إلا صغيرات السنّ.. تجده اليوم مع قاصر وبعد شهر أو أسبوع تزوره صبية اخرى.. وفي أحد الأيام سخر منه، قال له ممازحا وهو يفتح فمه بشكل غريب لينطق اسمه يا "نادر" لا تتحرش بأية صديقة من صديقاتي.. لا تمارس مع أية منهن الجنس فهن قاصرات عندئذٍ يطالك القانون، ومن حقه أن يسخر، هذا العاهر خفيف الظل..

ستة أشهر مرت ولا امرأة تغزو فراشه!

يتردد، مازال العيب يغزو رأسه. ينظر بطرف خفيّ إلى اثنين يهيمان في قبلة طويلة فيستبيح عينيه منظر آخر.. العيب الداء القديم.. هل ينظر إلى الأرض كالمنكسر إذا مشى، هكذا علموه، في جيبه نصف جنيه، وأجرة يوم، هذا في عالم الحصار الطويل العريض

يعني راتب أستاذ في الجامعة بعرضه وطوله. دكتوراه بايولوجي، جيبه خزانة تحفظ آلاف الدنانير التي تعادل دولارا، نصف جنيه، فلا غرابة أن يسعى أيضا إلى راتب جندي مكلف خريج يمكن أن يختصر بثلاثة حروف: ج م خ خريج أو خراء، لافرق.. الإثنان يمكن أن يحملا دلالة واحدة.. يجد نفسه يقبل شأنه شأن الأساتذة المحاصرين كيلو لحم.. أيّ شئ يؤكل.. كيلوي خضار.. دجاجة..

لايهم..

سيبعثها إلى بيت أخته مقابل تعديل في العلامات.. الجوع.. الحرمان، وذات يوم وجد نفسه في نوتنغهام أمام الدجاج مباشرة، ركب الحافلة خلال جولة بحث متوجها إلى "الكامبوس" أقفاص دجاج تمتد أمامه، دجاج وأرانب وحيوانات وطيور، موضوع آخر غير اللشمانيا لكن لابدّ منه، قال له مدير المخزن إن التجارب انتهت وبدلا من أن نقتل الدجاج والطيور يمكن أن نبيعها للطلاب. القفص يباع بباوند سعر رمزي، كائنات حية كلّ واحد منها مختبر قائم بذاته.. ينط يلعب.. يصيح أو يصرخ.. يزقزق.. يبدو فرحا، وإذ يدرك أنّه مختبر يصدّ عنه.. يرى ديكا ينطّ على حاجز خشبي داخل حظيرة الدجاج.. أرنبا يأوي إلى نشارة خشب، وتستفزّه بطة وضعت في لحظات بيضة رائقة البياض.. طلاب خليجيون اشتروا. يمارسون الذبح بأيديهم يكبّرون ويبسملون.. طعام حلال، فكر في أن يبتاع أكثر من قفص فيبيعه بسعر أعلى إلى أنجم عندئذ قرف حين تخيل نفسه يأكل دجاج

تجارب، يلتهم مختبرا بكامله، وزاده نفورا أن يأكله الآخرون عن طريقه. اطلاع فقط على تجارب لاتخص موضوعه قرف منها ولم يقرف من تجربة أحضر بعض أدواتها معه. للمرة الأولى يدفعه القرف إلى التنازل عن نقود، فما الذي جاء به من بريطانيا إلى العراق ثانية؟ ولم يكد يستدير عن الأقفاص حتى طالعه وجه صديقه طالب الهندسة عبد العال. كانا في الاجتماع الحزبي الشهري، وقد استغرب من سلوك رفيقه، كان مندفعا لأن يتطوع في العطلة.. الذهاب إلى الجبهة.. القتال في حرّ تموز، وصديقته طالبة الطب الجزائرية تعارضه تحثه على ألا يتسرع تقول العراق هو الذي كان سبب الحرب، يوافقها لكنه يرى أن الحرب واجب، معادلة صعبة، كلّ طالب بعثة يذهب في العطلة الصيفية يمكن أن يقضي شهرا في الحرب. يذهب ويرجع يتابع دراسته، نحن لانجبر رفيقا ، وأيّ معتوه هذا يسافر إلى البصرة في شهر تموز، وقتها البلد لا يطاق فكيف بالصيف والحرب، وموعد الحرب الثانية والحصار الفتاك لم يحن بعد:

– رائع أن أراك هنا وأنت المهندس في كامبوس الطيور والدواجن!!

– حميدة ستأتي بعد دقائق! أخبرتني عن دجاج التجارب.

ذهنه مشغول بجوستينا.

يتردد..

يخجل أن يذهب إلى البوب والمراقص.. يسكر.. يرقص ثم يقول

لمن راقصها هل نذهب معا.. أسكن بيت الطلبة.. عمل سهل وصعب، لو حاز على البعثة بعد الثانوية لفعلها، يقول:

– أنا على وشك أن ابدأ.. سيصبح لي صديقة!

– أخيرا انحلت العقدة!

وعلى بعد خطوات تَقدُمُ حميدة تتهادى مثل وزة رشيقة بمريلتها البيضاء وقامتها المربوعة مدت يدها تصافحه:

– مرحبا بك!

– مرحبا بكِ وبواصل: أخبريني أنا بايولوجي وأنت بيطرية فماذا يفعل هنا المهندسون!

– ياسيدي أنا أخبرته عن دجاج التجارب!"وأردفت"مازال لدينا أكثر من نصف ساعة ألا ترغبان أن نجلس في الكافتريا.

– مجرد رغبة في رؤية الكامبوس لأنني حين أرغب في الطبخ أشتري اللحم الحلال.

فقالت متحمسة:

يمكنك أن تذبحه في المنزل إنه لذيذ ربما يأخذ وقتا أطول في الطبخ.

وحين اجتمعوا حول الطاولة وقبل أن يبدؤوا باحتساء القهوة غمز عبد العال حميدة بطرف عينه قائلا:

– خبر جديد ياعزيزتي نادر وجد صديقة!

فتدارك الموقف:

- تقريبا!

دفعها الفضول:

- عراقية أم عربية؟

- يمكن أن تقولي إنكليزية قح!

فنظرت إليه بدهشة وقالت وهي تخفي بعض الامتعاض:

- يعني نصرانية.

كان يحلم..

أراد أن يقول ربما أخفق في محاولتي.. مجرد فكرة راودته. متفائل.. لديه إحساس أنه ينجح فتعجل بالتلميح.. بدت له حميدة مخلوقا غريبا.. جميلة لكنها أشبه بخرافة متناقضة.. ابنة مجاهد تدرس في الغرب وتكرهه.. والدها ساهم في حرب التحرير.. ثم عين ملحقا لسفارة بلده في لندن.. تزور عبد العال وتخلو به.. تكنك سيكس.. كل شيء مباح ماعدا البكارة.. لكنها تكره جميلة بوحيرد التي تزوجت من محاميها النصراني:

- قلت المشروع في بدايته!

يتدارك عبد العال الموقف:

- على أية حال مادمنا مبتعثين فلا يحق لنا الزواج من أجنبيات!

عندئذ أشارت عقارب ساعة الحائط في الكافتريا إلى الحادية عشرة، فغادر الثلاثة إلى معرض الكامبوس حيث كان المكان يعبق برائحة الدجاج، والطيور، ويزدحم بأقفاص الأرانب والفئران وبقية الحيوانات.

٣

– ماذا تقول أتفكر بزيارة أهلك؟

يسأله الرفيق مسؤول المنظمة في الجامعة وقد انفرد به في عزلة من الطلبة نهاية الاجتماع:

– سيدي حالما أنهي دراستي سأذهب.. أتوجه مباشرة إلى ساحة المعركة آمل أن تنتهي الحرب وآمل ألا تكون انتهيت كي أشترك فيها لكن الموضوع الذي أنا بصدد الإعداد له جديد ويتطلب جهدا مضاعفا؟

فاستدرك المسؤول:

– لا تظن أني أقصد التطوّع في الجبهة.

– ابدا لم يخطر ببالي مثل هذا المعنى قطّ.

وراح رجل الحزب يسترسل:

– طبعا تعرفون أننا لن نجبر أحدا من ناحيتنا إذ ندرك جيدا ظروف بحوثكم وصعوبة مواضيعكم بخاصة أنتم طلاب البعثات العلميّة.

ثم غيّر مجرى الحديث:

– هل تعتقد أنك تتوصل إلى علاج ناجع للمرض!

هو في جبهة أخرى..

تشمل العالم كلّه.. اللشمانيا يمكن أن تغزو الدنيا.. تحتضن الأرض.. تجدها على وجوه العراقيين والإيرانيين.. في السويد وإنكلترا.. الفلبين.. اليابان.. البرازيل.. الولايات المتحدة. أيّ مكان.. يستفيق شأنه كل يوم يتناول فطوره.. يصفو ذهنه بفنجان قهوة، ثم يجلس يراقب صندوقا صغيرا، ووحشا كريها يتحرك داخل العلبة وتحت المجهر، وحش صغير لكنه حيوي وُلِدَ مع الخليقة.. ربما قبل آدم وحواء، وامتدّ إلى الوجوه يقضمها، أما نادر فلن يذهب إلى أي مكان قبل أن يدرك ذلك السرّ، حتى لولم يجد علاجا ناجعا فإنّه لن يخسر، هكذا رآى في تلك الساعة نفسه، ويؤكّد للرفيق بثقة وهزّة من رأسه:

- سأحاول ممكن لِمَ لا؟!

كان كلّ شيء واضحا، مازالوا لا يضغطون على طلاب البعثات، قيل العراق بدأ يتفوق في الحرب منذ أول يوم.. أول إطلاقة.. أول اجتياح للحدود.. اندفاع.. نشوة النصر.. غير أن من يسافر من طلاب البعثات يلتحق بالجبهة فترة ما ويعود يواصل دراسته. لا يخشى الحرب سوى أنه لا يستطيع أن يوزع نفسه في جبهتين، لتضرب الحرب رأسها بالحائط، إن انتهت انتهت وإلا سيذهب برجله لها.. الآن في هذه الساعات يجلس أمام جهاز الفحص يراقب اللشمانيا. يدخل عليها في خندقها. مثلما تترك الحروب علاماتها على الأجساد والنفوس يفعل المخلوق الخفي بالوجوه.. يدخل معها صراعا

تحدد بثلاث سنوات.. مدة تكفيه لكي يخرج منتصرا.. أما عبد العال فقد ذهب أكثر من مرة.. سافر خلال عطلة الصيف. توزعته الحرب نصفين شهرا مع أهله وشهرا مع الموت. كل ذلك جرى على الرغم من أنف حميدة التي عجزت عن إقناعه وإن كان مزهوا بحب يكنه لها ولاينكره ويؤكد أنها ليست نزوة عابرة.. تساءل وهو يترك المجهر جانبا فتغيب عن عينيه القطريات المخفية، ما الذي يدفع شابا من أسرة غنية غير مقتنع بالحرب أساسا إلى الذهاب هناك. الجنون. حب الانتقام والقتل؟ إثبات وجود؟ لا يشكُّ في سلوك صاحبه، ولا يظنّه يلتقط الكلمات ليتقرب بها لمسؤولين، وفي غمرة الأسئلة والشكوك والحيرة التي ظلت تلاحقه في العمل غير المعلن عنه يسأله أنجم وهو يمزج البندورة بالخسّ والخيار:

ماذا لو ذهب وفد من المسلمين إلى الخميني للوساطة؟

يذهله مايسمعه من الآخرين.. ما الذي يجري في عقولهم، يذهب يأتي.. حرب أشبه بخليط السلّطة.. البندورة مع الخيار والليمون ثم يضيف الزيت ويرشّ الملح.. يتصوّرونها مطاردة بين عشيرتين أثارتها ناقة أو بيضة.. حرب البسوس بهيئة أخرى.. شكل جديد.. تظل تطول إلى نصف قرن.. ليست هناك من حرب تستأثر بالاهتمام مثلها.. أنجم المولود في بريطانيا الذي يتحدث الإنكليزية بلكنة غريبة يتصور الحرب قرارات عشائر، يراها خليطا من الخيار والبندورة.. إنها دول.. مجلس أمن، السياسة والدين، وليس مصادفة أن يثور الخميني

عام ١٩٧٩ ثم يحصل على بعثة بداية عام ١٩٨١ قبل الحرب بشهور، ليبق الوضع كما هو عليه وفي كل مرة يجد رفيقه عبد العال العائد من رحلة الصيف إلى الشتاء يحدثه عن مشاهد عجيبة غريبة يكاد العالم ينسى لها كل شيء.. الإنكليز أنفسهم نسوا حرب الفوكلاند، وعبد العال يقهقه ويقول تلك ليست بحرب، بريطانيا خسرت مدمرة قديمة وفرقاطة.. ألف جندي أسير.. هناك من يراها لعبة.. إنه يريد أن ينسى، وسيأتي يوم يقدر على أن يجلب إلى شقة الطلبة امرأة ما فيتحرر من عقدة المرأة التي عاش محروما من لذة جسدها إلى هذه الساعة:

- آلو؟

- قرأت إعلانكم عن الحاجة إلى عامل مساء الجمعة والسبت في مطعم، أنا طالب دراسات عليا أستطيع التفرغ في هذا الوقت.

مائتان وثلاثون جنيها راتب البعثة.. التفرغ للعمل خلال عطلة نهاية الأسبوع سيعيقه عن لقاء عبد العال وصديقته الجزائرية، مع ذلك تبقى لديه فسحة من الوقت.. أربعون إيجار السكن، ست ساعات بست جنيهات سيوفر إيجار الشقة، يستطيع أن يشتري بالفائض بعض لوازم لمختبر يحلم به فلتذهب عشرة جنيهات إلى جيب " جوستينا" تلك التي سمع اسمها قبل أن يراها، مغامرة أولى. محاولة. لا يريد أن يدخل بريطانيا ويخرج منها ولم يواقع امرأة ما.. ليس الفراغ وحده بل الرغبة والنشوة.. إحساس أشبه بالذنب يجتاحه.. هل يُعقَل

أنه منذ أن وعى نفسه بالغا لم يلامس نعومة الأجساد وغاب عن عينيه بريقها ودفؤها.. ربع قرن.. أقل.. أكثر، الزمن لايهم لكنه الظمأ الذي يضرب أعماقه فيحيلها إلى رغبة وندم.. يخجل أن يذهب إلى البوب فيدعو فتاة ما إلى الرقص وفي القسم الذي يتابع حربه فيه، عدد الطالبات محدود باحثات مثله والتعارف يقتضي وقتا وطريقة ما. لو كان طالب بكلوريوس لهان الأمر.. الساعة الآن قاربت الحادية عشرة، غادر تيموثي، وفريدريك مع صديقته، ولا يريد ان يأكله الفراغ.. لا بد أن تكون استيقظت الآن يستطيع أن يهبط إلى الطابق السفلي حيث الهاتف العمومي:

– ممكن أتكلم مع جوستينا!

– دقيقة من فضلك.

امرأة أخرى تجيب.. يظل لحظات ينتظر، يأمل أن تكون في الدار:

– نعم من؟

– أنا رجل البتزا، هل يعجبك أن تتناولي الطعام معي:

– سأغادر اليوم البيت يمكنك أن تأتي مساء الإثنين.

فوضع سماعة الهاتف غير أنه وجد فراغا هائلا ينتظره حتى يحين موعد اللقاء.

٤

في صباح اليوم ذاته شغله حديث الأستاذ وطريقة البحث ثم وجد نفسه في المختبر، تشتت ذهنه بعض الوقت، وعاد ثانية إلى حديث اللشمانيا. هاهو يباشر الذباب من وراء حاجز.. المختبر والجراثيم، حين يعود إلى العراق يفتح مخبرا للتحاليل يأوي إليه بعد دوام الجامعة.. مورد آخر ورزق مضاف.. فكرة لا بأس بها. في هذه الدقائق الطرية يمتد أمام عينيه مخبر الجامعة. الأنبوبة أمامه والسائل الوسطي. طلاب آخرون يجربون في مختبرات أخرى، وطالبات يرحن ويجئن، بعضهن يحملن كتبا وأخريات أنابيب شفافة. جاء إلى هنا بطفيلي اللشمانيا، وفي باله حسابات أخرى تخصّ العالم:اللشمانيا تغزو الصحراء.. حوض البحر المتوسط.. استراليا.. شرق آسيا.. العدوّ اللدود للوجوه والجلود محشور في علبة أمامه.. لا أحد سبقه في أن يعترض هذا العدو القبيح فيحشره في علبة صغيرة ثم ينقله عبر مسافات طويلة.. حسنا لكن الذهن وإن تجمَّع في لحظة سطوع فلابدَّ له من أن يجمح. قالت دلال مارأيكم في الدكتور ناصر.. متكبّر.. والأدهى، العلامات يقطرّها تقطيرا.. بخيل سأذلّه أمامكم.. لم يصدقوا.. قالوا تبالغ، سألتهم إن كانوا يرغبون بإذلاله فليتركوهما وحدهما.. طلبت منه بكلّ أدب أن يشرح لها تجربة عجزت عن فهمها

وهناك في المختبر استغلت الفرصة صفعته فجأة وصرخت.. راحت تبكي، أستاذ ناصر المتعجرف يقف مذهولا.. ولكي لا تنكسر هيبة الجامعة والأستاذ الذي أصبح منذ تلك اللحظة ذليلا لايرفع عينيه عن الأرض نقلوه إلى الموصل.. ضحك من كلّ شئ.. نفسه والجامعة.. والأستاذ.. تذكر دعوته للبغي. يسخر من الحادث كلما دخل مختبرا.. وتحاشى ألا ينفرد مع زميلة له، تخيل أن يلتقي الدكتور ناصر بدلال في إحدى المطارات بعد ثلاثين عاما هو أصلع وهي بدينة تسحل حقيبتها. جسد مترهل وتجاعيد. هل يعرف أحدهما الآخر.. تندر الطلاب وارتاحوا حين انزاح عن صدورهم هم ثقيل.. متعجرف صارم القسمات.. ارتاح شأنه شأن الآخرين وشمت مثلهم، ولم يقرن سلوك دلال بعد كلّ تلك السنين بتصرف واحدة مثل جوستينا أبدا لقد أشاع سلوك دلال وقتها في نفسه نشوة عارمة ثم والسنين تجري أخذ يشعر بقرف خفيّ خفيف ماذا لوكان هو الأستاذ؟ لكنه في هذه الساعة والأنبوبة بيده يضحك ويتذكر البغايا وصداقة يسعى إليها..

خاطر جديد تسرع ولمّحَ عنه لرفيقه فنقله بدوره إلى صديقته الجزائرية!

يا ترى هل تتكشف لهم الحجب في المستقبل فيعرف عبد العال أنه يلبي طلبات البترا ويمدّ يده لبغي؟

– حسنا هذا كتاب من جامعة البصرة إلى كلية الطب نطلب منهم أن يوفروا لك طفيلي اللشمانيا وعليك أن تحسب حساب الوقت.

– شكرا لك دكتور.

يتحرك بخفة، مهمته أن يلخص الزمن حتى لا يتلف طفيلي اللشمانيا، وسيلخص لها إن التقاها ثلاثة عقود من الحرمان . رغيف صعب.. أو خندق طويل.. دائما تواجهه السنين فتتحول إلى لحظات عابرة.. يزور كلية الطب، يناور من مكتب إلى آخر. يقابل طبيبا، وينصرف إلى حاوية، بضعة أيام من الركض في مؤسسة كلية الطب.. أخيرا يتنفس الصعداء. هاهي اللشمانيا في صندوق زجاجي يحميها مثل جنرال داخل قفص لايخترقه الرصاص!

وقبل السفر ببضع ساعات كان يحمل ذلك العالم الخفيّ الذي يفتك بالوجوه!

الطيران ثلاث ساعات، والعينة في يده.. يمكنها أن تظل كما هي لأربع وعشرين ساعة.. حساب الزمن أقل أو أكثر لايهم بل الأهم أن تصل سليمة إلى الجامعة، ومن حسن الحظ لم يكن في ذلك الوقت على الرغم من خطف الطائرات والعصابات وحوادث المطارات أيّ حظر على مادة في زجاجة تثير الريبة. كانت الزجاجة في نظره تعادل شهادة الدكتوراه وحربا طويلة مع أحد جنرالات الخفاء، عالم صغير واسع بحجم العالم يتخطى الدول والقارات.. يا دكتور "نادر" الآن تغير الوضع كنا في حصار. لا نعرف شيئا عن الدنيا التي تحيط بنا. بدأت جامعتنا تنفتح على جامعات العالم.. انتهى كل شيء.. الجامعة التي درس فيها رشحته للسفر خلال عطلة الصيف

كي يواصل بحوثه في الجامعة التي عاد منها بشهادة عليا. بعد فراق طويل دام ثلاثة عقود يرجع إلى نوتنغهام بجرثومة اللشمانيا. جنرال مخفيّ في صندوق مضاد للرصاص.رائع جدا أن تكون كذلك وفي جعبتك الكثير. مختبره في شارع "الجزائر" ينقصه الكثير، وشهد الكثير.. ولا طالبة تنفرد به لتصفعه.. مصابون بالسفلس.. جراثيم كلاميديا.. هذه العينة التي جلبها من العراق، توحي له بأخبار وتخفي عنه حوادث تجري لا مفر منها، أربع درجات تحت الصفر حينئذٍ عليك أن توازن بين ساعات سفرتك بين مطار بغداد والبصرة ثم لندن ونوتنغهام.

كان يبتسم.

يتذكر ويعبث قليلا بالزمن.

ترآى له أن بمقدوره أن يفعل أيّ شئ يشاء.

لو كانت هذه العينة في يده بعد ثلاثين عاما. سيصبح بلاشك محط الأنظار. ستتحوّل إلى جرثومة خبيثة تغزو أوروبا والعالم. إنه زمن داعش وقطع الرؤوس. ترك الانفجارات خلفه وجاء يعايش الفطريات والفايروسات. يلاحق عالم الخفاء الذي ابتدأ به قبل ثلاثة عقود.. ستأتيه نساء متزوجات أصبن بالسيلان، وأخريات يعانين من كلاميديا، عدوى زوجات من أزواج، وآخرين من شريكاتهم. أسرار لايبوح بها ولا تُرَدِّد صداها جدران مكتبه. ظل يراقب البكتريا والفايروسات بصمت.. حذر كما لو يجلس في خندق يتابع جنودا

أعداء يتسللون لقتله أو قتل آخرين، لكنَّ "جوستينا"طاهرة من أي مكروب.

لا تخف.. هنا الصنف المعني يخضع لفحوصات دائمة وأنت على الرغم من عبثك لا تجرؤ على أن تقتحم عوالم المراقص وتختار منها صديقة أو تتحرك في وسطك الجامعي فلا تخلق لنفسك خيبة أمل.

أليس هو الخجل؟

في تمام الساعة الخامسة نهض من أمام المجهر.. أعاد العينة إلى المبردة، وقصد غرفته يستريح قليلا.. أخذته غفوة ثم استيقظ.. كان يتهيَّأ للمغادرة حين سمع ضحكات تصدر من غرفة تيموثي.. أدرك أنها فتاة جديدة، قاصر أيضا.. وكان بعد دقائق في المطعم.. وجد العامل الآخر مشغولا في القبو، وقال أنجم:

- هل سمعت بالحرب؟

- ماذا؟بين لبنان وإسرائيل؟

- العراق اجتاح إيران؟ وعقّب وهو يهز رأسه ويلمس صدغه بطرف إبهامه: والله المسلمون مجانين.

في هذه اللحظة قفزت البصرة إلى ذهنه طول الطريق من المطعم إلى بيت البغاء. ترى متى تنتهي الحرب؟ يقول أنجم بدأت الصباح وقتها كان مشغولا بالمختبر والأستاذ. أجواء الجامعة تعبق من حوله، فهناك في هذه الآلات الصامتة الناطقة يحتجز هو والآخرون

مخلوقات صغيرة لا أحد يراها لو فلتت لفتكت بالعالم كله. كائنات مخاتلة تتغير وتتلون كلَّ يوم وكلَّ عام لتنجو من قدرها وليس بمقدور العالم أن يستغنيَ عنها. نحن نعيش مادام لنا أعداء، وعن بعد اندلعت حرب.. كلّ مايعرفه من أنجم أن العراق دخل الحدود الإيرانية لكنّ البصرة في ذهنه لمّا تزل واعية بصورتها الأولى التي تركها عليها. شط العرب في مكانه، والعشار.. الزبير.. أبو الخصيب.. الخطر مايزال بعيدا ولا يظن أن الحرب تطول.. تستهلك يومين.. ثلاثة.. أسبوعين وإن بالغنا فشهرا ثم يعود كلّ شيء إلى مكانه..

صباح الغد يتصل بمسؤول التنظيم. سؤال مجاملة يدفعه إليه كونه طالب بعثة لا أكثر أو لينتظر أسبوعا حتى يحين موعد الاجتماع، لكنه يأمل ألا تطول الحرب التي هو بعيد عنها.

كانت تستقبله بابتسامة واسعة، بكامل أناقتها. وتستلم منه البتزا والشاورما. تسريحة تأخذ شعرها الذهبي إلى علو وتهبط به نحو الصدغين. اجتازت به الباحة العريضة ذات الضوء الخافت التي تبين وسطها مقاعد فخمة تحيط بطاولة شفافة من زجاج وعلى يمين الصالة شخصت بعض سنادين الورد وشجرة لماعة طويلة يكاد رأس جذعها النحيف يلامس السقف. خمس غرف، ابتسامة تقابله من فتاة عبرت الدهليز نحو الباب الخلفي.. اقتادته إلى غرفتها، فالتقط أنفاسه كأنه قادم من زمن بعيد!

تركت الباب مفتوحا، فتهادت إلى سمعه ضحكة ناعمة، خطر

يجتاز الممر باتجاه الحديقة كهل في الخمسين، وخيّل إليه أنه رآى من فتحة الباب امرأة في الثلاثين من عمرها تعبر إلى دورة المياه، ثم عاد بحواسه إلى غرفتها. الباب المفتوح شغله برهة.. كان لون الجدران التركوازيّ يثير اهتمامه، جدران ذو نكهة خاصة.. يطوقها من الجهات الأربع خصر خشبي ورفّ زيَّنته أوعية صغيرة بدت بملامح رومانية أو يونانية قديمة، وثمّة ثلاجة صغيرة ومغسلة ومنضدة وضعت عليها لفة الطعام:

- ما اسمك ؟

سألته وهي تأخذ مكانها على الأريكة المقابلة، فبدت له بشكل آخر غير الذي رآها عليه أول مرة.

- نادر.

شقّت ابتسامتها عن أسنان بيضاء ناعمة متراصة ذات بريق وسألته باهتمام:

- Nadiir "لحظة صمت" أنت لاجيء؟

- طالب بعثة.

وسكت.. قيل له إلإنكليز يجيدون فن الإصغاء فيجيب بقدر ما يسأل عنه، وإلا لظلت تنصت إليه مادام يتكلم، فقالت وقد ارتسمت علامات الدهشة على وجهها:

- من أي بلد أنت!

العراق!

- قطبت حاجبيها:

- عندكم حرب الآن؟

- لم أسمع بها إلا قبل قليل.

- أمل أن تنتهي قريبا.

ربما يبدو اللقاء في بدايته باردا.. اسمه.. ذكر الحرب، يزيده برودا مدفأة في زاوية الغرفة مازالت مهملة مادام الطقس معتدلا.. وزاد من شعوره بالبرودة باب الغرفة الذي بقي شدقه مفتوحا، فتتسلل إلى عينيه من خلل ضوء الصالة الشاحب حركة ما، أو حفيف، وربّما تتهادى إلى أذنيه ضحكة خافتة من غرفة ذات باب مغلق.

انتشله من تشتته المفرط صوتها ثانية:

- ماذا تدرس؟

سؤال، ونظرة طردت الضجر.. تريد أن تسمع أكثر مما تتحدث، وقد تاه تماما عمّا سعى إليه. تجتاح جسده برودة. يودّ لو يتعرق فيطرد عن أطرافه صقيعا لا يعلم من أين انبثق: كتفيه أم خاصرته.. في مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يفعل أي شيء، على الأقل الباب مفتوح.. يشعر أن هناك من يعرف حين يغلق الباب أنه يضاجع امرأة.. ولا أحد يخمّن أنها المرة الأولى في حياته.. خيال الآخرين رقيب نصفه بدري والنصف الآخر بجهل، وفي هذه الليلة يدرك وفق العرق الذي لفظه جَسَدُه أنّه عاجز، وسيظل العجز يلاحقه مادام في غرفتها.

هذه الساعة لن يفعل شيئا..

متأكد من عجزه تماما.

- أحضر الدكتوراه في اللشمانيا!

حدقت إليه باستغراب.. دهشة.. احترام.. تعفف.. أية كلمة لا يهم، وبخاطر سريع أسرع من أية ساعة وشهر أو قرون.. رأى حبة صغيرة.. قرصا ينطبع على صفحة خدها اليمنى.. سيكون وجهها أجمل وأكثر جاذبية لو رافقته حبّة بغداد.. ليجرب قليلا..

- بديع "وبنبرة دافئة":you are clever

إنها لا تجامل، وهو حقّا لو لم يكن كذلك لم يحقق المركز الأول في الكلية، تفوق جعله على رأس المقبولين في بعثات إلى جامعات بريطانيا ورغم ذلك لم يعترض على سلوك دلال حين استدرجت أستاذهم القدير الجاف المتعجرف إلى غرفة المختبر ثم وجهت إليه صفعة رنّت لها جدران الكلّيّة. كان لا يخشى من تزمت أي أستاذ ولا تستعصي عليه مسائل الامتحانات. ذكي حقا إلى درجة الاستهانة وعدم المبالاة. لا يهمه غيره ولا ينحاز إلى أية جهة سواء مع الحق أم الباطل لكن أي لقاء هذا يبدأ بحرب وينتهي بلشمانيا.

هل يحرك الجمر من تحت الرماد والباب مازال يفتح شدقه نحو نور الصالة الخافت وأكثر من حركة تتراوح بين الغرف والمدخل الرئيس فتزيده برودا:

- شكرا لك كنت منذ الطفولة أحتل المركز الأول في المدرسة!

وسكت ليعبر ضبابا انزاح عن عينيه.. في الصف الرابع

الابتدائي.. يجد علي زعلان احتل المركز الأول وانتقل هو إلى المركز الاول المكرر، ومن حسن حظه أنها المرة الأولى إذ أن علي زعلان منافسه الصلب انتقل بحكم وظيفة الأب إلى مدينة أخرى فلم يطل حقده على زميل الطفولة، أمّا الحادث فبقي يحزّ في نفسه مثل علامة سوداء أو خال بحجم حبة القهوة على خدٍّ ناصع البياض:

– تصوري هناك وجوه كثيرة تشوّهت بهذا الداء كم أكون سعيدا لو عثرت على سرّ ذلك الطفيلي!

I hope you will do

مع ذلك راودته ثانيةً اللمحة الأولى التي جعلته يشتهي أن تكون هناك حبة صغيرة أصغر قليلا من حبة الحمص على إحدى صفحتي خديها فتزيدها إشراقا وربما ستظل تراوده في لقآت يودّ أن تتم :

– آمل أن أصل إلى حلٍّ ما!

وغيّرت الحديث:

– هل تحب أن تشرب شيئا؟

– أي شيء لو سمحت!

من رفّ قريب انتشلت زجاجة ذات سائل أحمر عندئذ عرف أن اللقاء يمكن أن يمر من دون أن تقع أية مفاجأة. ودّ أن يظل الباب مفتوحا ليبحث عن لقاء آخر فيتخيل وجهها بحبة بغداد أو ليكن بعلامة أخرى ok mother mark.. لن يزحف إلى سريرها فيحتوي بين ذراعيه جسدها البض. مومس مشرقة الجسد والوجه. مازالت في

أوائل العشرينيات هل يُعقل في عالم آخر غير اللشمانيا أنه لم يقترب من امرأة. طالبات القسم معه في الجامعة بضّات.. جميلات. بعضهن يرتدين المنيجيب.. والأخريات يمشين بإثارة.. لمن كل ذلك.. أما أعصابه في هذه اللحظة فقد ظلت بليدة.. باردة.. المرة الأولى التي يلتقي فيها امرأة فلا يرغب أن يعرف الأمر أحد.. سيان سواء أغلق البابُ شدقَه أم ظلَّ يطلُّ على الصالة.

لن يحدث شيء تلك اللحظة قط!

– أظنك جائعة فالطعام مازال ساخنا!

خلال دقائق رتبت المنضدة فملأت الغرفة رائحة الخيار المخلل والخبز، والشاورما، تجاهل تماما رغبةً في احتوائها. أجّل كلّ شيء إلى لقاء آخر ، فرفعت كأسها نخبه، ردّ عليها بكأسه وهو يقول:

هل ترغبين أن تزوريني في بيت الطلبة؟

– لِم لا "أضافت بهزة من رأسها" يمكن أن تتصل بي بعد يومين حين أعود مساء من ليستر!

٤

فرح آخر ينتظره..

كان لابدّ للصباح أن ينتهي بين لقاء الأستاذ المشرف ومتابعة جرثومة تتحرك وتتمدد، لساعات بقي يضع الذرة الدقيقة تحت المجهر فيتابع خطواتها وامتداداتها اللانهائية.. عالم لا ينتهي نحاول بكل معداتنا الحديثة واختراعاتنا أن نقضي عليه.. نحصره في علبة صغيرة ويضع سنوات.. أنا متأكد من نجاحي في محاربة جرثومة الخفاء.. ألم ينذحر السلّ من قبل من كان يصدّق، حدث نفسه قبل أن يدخل بعد ظهر اليوم إلى قاعة اجتماع في الكلية استأجرها ذلك اليوم طالب التاريخ مسؤل المنظمة، اجتماع استثنائيّ عن الحرب، تقاطر إلى القاعة طلاب من خريجي الثانوية وبعض طلبة الدراسات العليا. كانوا بحدود عشرين طالبا:

– لا بدّ من هذا الاجتماع الاستثنائيّ الذي يسبق اللقاء الشهري.

قال المسؤول وعدّل جلسته.. حاول أن يتحرر قليلا من آثار المختبر، ويؤجل نشوته بلقاء الليلة. لا يدري أو يدري ولا يعرف لِمَ يحارب اللشمانيا في الوقت نفسه يود لو انطبعت حبة صغيرة منها على بعض الوجوه. عند السادسة ستأتي من لستر، ولعل الآخرين مثله، يفكرون بأمور أخرى، تافهة أومهمة: صديقات، بحوث، تسوّق،

زيارة الأهل، وسواء حضر أم لا فلن يغير ذلك من طبيعة الاجتماع، يستطيع أن يتجاهل.. كان يفتخر أنه احتل المرتبة الأولى في الكلية ولولا شرط الانتساب لجرت الامور على خير مايرام.. لابد من أن ينتمي وإلا يفقد امتيازه.. بعثة يستحقها ومظروف شهريّ ب ٢٨٠ جنيها من السفارة.. وكلّ ماجرى أو يجري من أجل جرثومة تتقلها ذبابة.. شدَّ الانتباه المسؤول مرة أخرى:

– زملاء كلنا قبل أن نأتي إلى هنا سمعنا برسالة الخميني الى الرئيس البكر كانت شاذة في الأعراف الدبلوماسية إنَّهم يريدون أن يصدروا ثورتهم وكان علينا أن ندخل المحمرة لنحمي أنفسنا!

تدخل أحد الطلاب بلهجة تودد:

– هل يتطلب الأمر أن نتطوع؟

ابتسم المسؤول وتأمل قليلا بقسمات مرحة:

– لا أظن الآن سوف تنتهي الحرب خلال أسبوع أو على أكثر تقدير شهر!

وتدخل أحد الطلاب القادمين من المرحلة الثانوية بعفويّة:

– لكن هل نعيد لهم المحمّرة إذا توقفت الحرب؟

نفى المسؤول بهزة قلقة من رأسه:

– جيشنا اندفع داخل بعض الأراضي مسافة خمسين كيلو مترا المحمرة ستصبح محافظة عراقية.. إيران انهارت. تماما..

والحرب لن تطول.

ولفت عبد العال نظر نادر وهو يندفع متحمّسا:

– يمكن أن تسجل اسمي أيها الرفيق!

تذكّر أنّه نسي أن يهرع إلى التلفون في اليوم الأول لسماعه اندلاع الحرب فيطمئن على أهله. ظن ماحدث مجرد مناوشات أراد أن ينساها مثلما نسي أمورا كثيرة من قبل. حروب اندلعت من قبل لأسباب تافهة.. اختلاف على حدود.. مباراة كرة قدم.. كلمة بذيئة.. واثق تماما أنها سحابة عابرة والبصرة بخير، لعبة لن تطول. إيران في ثورة وفوضى ولابدّ من أن تنتهي الحرب ثم تحول إلى أقرب كابينة هاتف.. في البدء ظنّ عبد العال غير جاد، فالحرب ستنتهي قبل أن تأتي العطلة وموعد زيارة الأهل، حسب أن المكالمة الخارجية مكلفة فوضع في باله بضع دقائق.. تحدث مع أمه فارتاح إلى أن الحرب مازالت بعيدة عن الحدود وكلّ شيء يسير على مايرام، وأن أهل الخير سوف يتوصلون إلى وساطة ما بين العراق وإيران!

حديث بارد عن حرب ساخنة يلهج بها العالم!

غير أننا في رهان مع الزمن، والحرب مثل الليل تطول وتقصر لا كما يعجبنا نحن، النشوة راحت تتابعه بعد الاجتماع، ومكالمة الهاتف.. أمامه وقت طويل لمغامرة جديدة. أما كان بإمكانه أن يتصرف مع الأخريات هنا في بريطانيا أو من قبل في البصرة مثلما فعل مع جوستينا. اكتشف قوته متأخرا.. سخر من نفسه لاكتشافه المتأخر.. يحاول أن يعرف سرّ كائنات خفية ظنها أجداده جنّا. في

آخر لحظة أدرك نفسه.. خشي من برود يلاحقه.. خامره يأس ولم تتركه النشوة. وقبل الساعة السادسة طرد كل الأفكار الجامحة من رأسه، ذهب إلى مجمع "مدينة" حيث الذبح الحلال فابتاع لحما وخضارا وفاكهة. تحاشى أن يمرّ على مطعم "الفردوس" حيث يعمل فقد يفعلها أنجم ويعتذر عن قبول أي مبلغ مقابل ما يأخذه من طعام جاهز.. وتحوّل إلى "أزدا" كان يبحث عن نبيذ غال.. ثم عاد إلى بيت الطلبة.. كم ودّ أن يكون فردريك أو تيموثي عندما تأتي حاضرين، سيشعر بزهو عظيم.. مفاجأة.. لا يشكّ أن الأمور تجري على مايرام، تؤكّد ظنونه رائحة الطعام وجوّ المطبخ العبق بلفحات الكاري والفلفل.. والخيار المخلل. الطبخة الوحيدة التي يعشقها "رأس العصفور" وبهارات جلبها من "سوق المغايز" تكفيه سنتين.

هذه الليلة تختلف تماما!

ترى هل تخونه جرأته مثلما شعر بها تفلت منه يوم المصراع المفتوح!

كلّ شيء بأوانه لكن أين فرديردك وتيموثي.. لا بدّ من أن يأتيا.. يريدهما أن يصلا الشَّقَّة قبل أن تغادر.. مثلهما لديه فتاة وخمر ثمّ لاحرب ولا لشمانيا.. الجنود في أماكنهم على الحدود يتقاتلون وحين يتعبون تنتهي الحرب. واللشمانيا قابعة هذه الساعة في صندوق يحميها. كلّ شيء يتلاشى من الذاكرة.. يختفي مثل سحر لطيف شفاف.. والهاجس الوحيد الذي يخامره ألا يراوده عجز..

خيبة أمل..

هو الجسد الأول الذي يكشف أسراره، ويدرك معانيه، ويثبت قوته، وقطعت عليه تأملاته وهو مستلق على السرير في غرفته نغمة الجرس.. نغمة تكاد تكون غير غريبة هذه المرّة. كانت تحمل باقة من ورود زاهية الألوان، خلعت معطفها وارتمت في الصالة على مقعد يقابل باب الشقة، وهي تقول:

– إنّه مكان جميل!

– شكرا على الورود الجميلة!

– dont mention

قالت ذلك وهي تتطلع في لوحة لمجموعة خيول شخصت بين الجدار الخلفي وإحدى الغرف، فسبقها يدخل في التفاصيل:

– هذه اللوحة جلبها فردريك زميلي في السكن. ياسيدتي نحن هنا ثلاثة طلبة في هذه الشقة، تيموثي أمريكي يدرس الاقتصاد عبثي، لا يصادق إلا القاصرات، وفيريدريك يدرس الرياضيات وله صديقة، إنسان مركب من جذور ألمانية!

فتساءلت ببراءة فتاة صغيرة:

– مرتاح هنا في السكن معهم؟

– نحن نلتقي مصادفة، وغالبا ماتكون لقآتنا في المطبخ أيام عطل الأسبوع والعطل العامة، تدور بيننا أحاديث عابرة ومجاملات لابدّ منها!

وماكاد الوقت يمضي في تناول الطعام والحديث العابر حتى خشي أن تتخلى عنه همّته، يتكرر ماراوده من عجز ليلة زارها في بيت الدعارة، زاده قلقا أن رفيقيه مازالا غائبين وإلا لشعر ببعض الزهو صائحا من أعماقه: أنا مثلكما.. يسميها ليلة الزهو.. مراسم الفحولة.. بعد أكثر من عقدين من الجفاف والظمأ معي امرأة.. تأخذ نقودا لايهم.. الدنيا الآن انقلبت إلى عملة. مال كان غافلا عنه سنين طويلة.. حوالة ترسلها السفارة العراقية كلّ شهر مرة.. أنا غامرت فاشتغلت في عطلة نهاية الأسبوع لعلني أوفر شيئا أدفعه لشراء معدات أحتاجها لمختبر أحلم به، لم أكن أعرف البيع والشراء والربح والخسارة. العالم نفسه منقسم إلى رأسمالي وشيوعي، أتابع اللشمانيا التي تفتك بالوجوه مقابل بعثة كلفت الدولة لكثير، لايهم أن تكون معي امرأة ألتقطها من مرقص أو كلية، كلهن سواء، كانت دلال عبد الجبار فاتنة أغوت الأستاذ من حيث لايدري وصفعته.. لايهم.. مادامت معك امرأة تدفع لها أولا.

وخلال هواجسه الطويلة وانشغاله بترتيب بقايا الطعام، تسربت إليه حركة من الباب الخارجي، فخطى الى المطبخ يلقي بالنفايات في صفيحة الأزبال.. ترك الباب مفتوحا.. لعل العابر يلمح خيال جوستينا.. كان يراهن قدرته على حضور الآخرين وباب الغرفة، شريكاه في السكن الآن يعرفان أنه مثلهم. ، وإذا به وجها لوجه مع فردريك وصديقته، تعمد أن يبدأهما بالتحية، زهو طاغ يكاد ينفلت من

أحاسيسه، ورفع صوته قليلا مخاطبا ضيفته:

عزيزتي جوستينا أنا قادم حالا..

ودخل وأغلق الباب خلفه. آخر ما تهادى إلى سمعه ضحكة خافتة من "Robyn" صديقة فريدريدك، وقف يتأمل جوستينا التي استقبلته بابتسامة وادعة عريضة وهي تفتح إليه ذراعيها.. استغرقه صمت ولم يتكلم.. لحظات مرت فظنّ الصمت يطول، فيتحرك نحوها ويعانقها.. يشعر بدفء جسدٍ بضٍّ طريٍّ.

شيء ولاشيء، لابرودة..

قوة عارمة تجتاحه وعجز مفاجيء، هل يعقل؟بعد عقدين من الزمن يلجمه شيء تافه لا يدري مصدره، كان يخشى أن يعرف الآخرون أنه مع امرأة فيبرد، ذهنه مشغول بأمور شتى تختلط وتتلاشى، وقد تمنى أن يعرف جيرانه في الغرفة المجاورة فتضاعف برودة، أما جوستينا فلم تتركه. أخذته وحركت رأسها على صدره.. استدارت نحوه وبدأت تتجرد من ملابسها ثم حكت هامتها تحت ذقنه. قبّلته ومسحت فمها على صدره كأنها تطيق على بعض شعراته بشفتيها فتسحبها برفق، وهمست له: قبّل كتفي، تمسحت به كقطة وادعة.. تلاعب به العالم الجديد فبدأ ينسى، غادرته برودته وتردده وإذ أحست أنّ حمى دبت في جسده اقتادته إلى السرير.

أخذت تشاغله.. تسلله عما يحيطه، وشيئا فشيئا استعاد فحولته، فهوى بشفتيه على شفتيها..

انتهت سنوات الظمأ..

تلاشى الخوف تماما..

هناك زمن الصبا، والقحط.. يكتشف الصبي نفسه فجأة.. من خلال حلم أو مداعبة متعمدة باليد. عبث صبياني يمكن أن يفعله في أي مكان: بستان وقت الظهيرة.. مرحاض.. ساقية خاوية من الماء.. لحظات وينتهي كل شيء.. في الصف الثاني الثانوي قال له تلميذ حينما تحدثوا عن الأمر لا تكثر يقولون إن ماء الرجل ينقص بالإفراط فلن يجد حين يكبر من كثرة الاستعمال ذرية ولن يصبح أبا وقتها صدق الخرافة.

عقيم لاعقب له..

قطرة لزجة باهتة لا حياة فيها..

تعلق نظره بسقف الغرفة وانتشل نفسه من ذكريات بعيدة.. هرب من الخجل والخوف والتردد.. عالم جديد يخوض غماره وكان يخافه من قبل. مازال صامتا وهي تسأله:

- سعيد بذلك؟

هل يصارحها؟ إنها المرة الأولى التي يلتقي فيها امرأة على فراش واحد، تساءل يا ترى هل عرفت حقّا أنها هي المرة الأولى التي يمارس فيها، ليكن لتعرف أم لا:

- جدا! وأردف "إنك رائعة".

راحت يده تمشي على صدرها وبطنها.. جسدها البض نعومته،

تمثال دقيق الصنع لم يؤثر فيه مرور الرجال عليه . لم يلح خدش يشوه بريقه، في الثانية والعشرين من عمرها.. تستقبل زبائن كلّ يوم فيغادرون من دون أثر.. اجتاحته رغبة أخرى، تأكد أنه قادر على أن يفعل، هو الذي يبدأ.. جاء دوره الآن.. فانقلب نحوها ثانية وهوى بشفتيه على شفتيها، وعندما انتهى كل شيء، نهض من مكانه، وبباله أن يحسب سعر المرة الثانية، مبلغ إضافي.. استلّ من محفظته عشرة جنيهات أضافها للعشرة الاولى، وضعها جنب حقيبتها. قالت شبه مستنكرة:

– ماذا تفعل؟

قال باعتذار:

– مرتين أنا ممنون جدا، أنت رائعة هل المبلغ قليل؟

فكشفت عن وجهها الآخر، وانحنت تقرص أذنه:

– لا تكن غبيا لو قدمت للعمل لما جلبت معي باقة ورد نحن صديقان!

وقتها تلاشى من ذهنه أيّ شيء سوى عبارتها، نحن صديقان، وتمتم مع نفسه كأنه يخجل أو يخشى أن يبوح لأحد وإن كانت جوستينا نفسها التي اكتشفته:

– أجل نحن صديقان!

لكنه كان مقتنعا تماما أنها هي التي اكتشفته!

٤

واستهلكته، في بضعة اشهر أو سنوات، جهود مضاعفة، في الوقت نفسه نشوة بعيدة الغور، كان ينكبّ ساعات الصبح على البحث، يناقش الأستاذ المشرف ويدون ملاحظاته، ثم يذهب إلى المختبر يتعامل مع السوائل والمركبات فيحاصر جرثومة اللشمانيا. بطن البعوضة الناري وانتشار الشعر على جسدها، حمرة قاتمة في الأسفل.. عالم صغير خفيّ مخيف لا توقفه حدود، يدخل تفصيلات ثم حين يتحرر تطل عليه الحرب الكبيرة تلك التي تطايرت وانتشرت أسرع من جرثومة بين يديه يراقبها عن قرب، من قبلُ، يوم اشتعلت على عجلٍ، بدت ذات نهاية قريبة:بعد أسبوع وربما، إن نشاءمنا وأفرطنا، تستهلك شهرا حينذاك اعتاد أن يتصل بالهاتف فيطمئن غير أن الحرب مثل اللشمانيا أبت إلا أن تلاحقه.. كلمّا حاصرتها من جهة امتدت لمكان آخر وانتشرت فيئس من نهايتها، وكان الطالب الرفيق مسؤول المنظمة يجتمع بهم كلّ شهر، ويسأل السؤال التقليدي الذي اعتاد عليه كلما قرب العام الدراسي على النهاية وأقبل الصيف:

أي من الذين يسافرون خلال العطلة إلى أهلهم يرغب في الذهاب إلى الجبهة.

لايخاف.. حقا لا يخاف.. سوى أنه لا يرغب في السفر سواء

وقعت الحرب أم لم تقع.

لا بدّ أن يقضي السنوات الثلاث مع اللشمانيا!

هناك من اندفع، هو الحماس أو الحياء، رجل وقضى الصيف الساخن على الجبهة ولم يُعْرَف أنّ أحدا، من طلاب البعثة، قُتِلَ في الحرب، المتطوعون عادوا وأغلبهم من خريجي الثانويات وبعض طلبة الدكتوراه.. عبد العال كان هناك في صيفين، تقاسمهما بين العيش مع أهله والجبهة.. تسمعه ينتقد الحرب ولا يتردد في اقتحامها.. لغز آخر عنه تفهمه ولا تفهمه. غامض واضح. قد تشكّ فيه ثمّ لاتصدق هواجسك.. ليس بمقدور مسؤول المنظمة أن يجبر أحدا سوى أنه بعض ردّ للجميل، يارفاق. مادامت الدولة منحتنا امتيازا، بفضلها نعود أطباء وموظفين محترمين، مهندسين أساتذة جامعات، فلم لا نترك مقاعد الراحة مدة شهر فنقاتل العدو، أسلوب خطابي يمكن أن يتكرر في كل لقاء..

على يقين أنه لايخاف..

لايتردد فذهنه مشغول بحدث آخر.

ولعله كان يود السفر مرة واحدة خلال مدة الدراسة، عطلة واحدة لا أكثر أمّا الآن – إذ تغيّر الوضع – فيمكن أن يلحق ببقايا الحرب حين ينفض يديه من أطروحته.

متأكد أنه لن يتردد، وربما يجدها أشلاء..

هكذا أقنع نفسه، واقتنع أنه يمارس حربا أخرى على قوى الخفاء

التي جلبها معه، فكلّ شيء الآن يسير على مايرام ولكلّ حادث حديث.

أما النشوة المضاعفة فالتي يقضيها بعض الليالي حين تتفرغ له جوستينا.. كانت ترتاح عادة من الشغل يوم الإثنين، فتزوره في شقة الطلبة، وقد ألِفَها وعرف عنها الشيء الكثير بل رآى جسدها يتجدد كل يوم كما لوكانت تستحم بماء يعيد لها رونقها كل دقيقة. قد تكون عثرت على منهل الحياة السحريّ. بئر.. نهر.. شلال.. لا يدري أية ساعة دفعتها للتفكير في أن تمارس مهنة البغاء، لا تعليل عندها سوى أنها كما تدَّعي أكملت المرحلة الثانوية، وجدت وظيفة في محطة بترول:أربعمائة جنيه كلّ شهر وفي أشبه ما يكون خاطرا يندّ عن حلم جديد أدركت أن هناك بيتا يملكه شرطي متقاعد. بيت دعارة، شيء غريب تجربه.. عالم جديد نَوَتْ أن تقتحمه، ولعلّها لا تنوي البقاء طويلا فيه. لِمَ لا نجرب الأشياء فنحياها كي نعرفها عن كثب.

كانت تربح ألفا وخمسمائة جنيه في الشهر. لحظة لا يمكن أن تتجاهلها..

ولا وقت لأن تتردد..

يا ترى هل تردد ساعة وقع بصره على إعلان في الجريدة ، فعمل في توصيل البتزا، صكّ بين يديه من السفارة كلّ شهر يغطي نفقاته، تبقى التجربة الجديدة التي تجذبه.. ماذا عن سنوات طويلة استهلكته على مقاعد الدراسة وأمامه حين يعود إلى البلد مجال واسع.. أستاذ

في الجامعة، صاحب مخبر طبي، ليفعل أي شيء فهنا تضيع كثير من الأسرار وليكن سايكون.. هذه بريطانيا أم الرأسمالية، لابدّ من تجربة النقود، يقتنع تماما أن جوستينا فعلت ما تعتقده الصحيح مثلما فعل فاندفع مع إعلان في جريدة مركونة على الطاولة، هل هي الغيرة بدأت تراوده؟ في بريطانيا النساء يمارسن الجنس بوضوح.. منهن من يرغبن بالنقود وأخريات مجرد البحث عن لذة، لا يهم، لو التقط جوستينا من "بوب"أو الجامعة عبر علاقة حميمة لقرأ دون أن يعي آثار الرجال على جسدها من أنكليز وعرب وسياح. الدنيا واضحة.. منفتحة.. لاحدود لها مثل حشرة تتنقل على أجساد البشر ببطنها الحمراء. هي الغيرة تراوده إذن! هل هو الحبّ. ما النتيجة؟ ليشطح به الخيال بعيدا فيرى أنها ذات وضع مختلف.. في بيت آخر غير البيت "١١٦" ، وليتمادى في تصوره فيجد أنها عذراء. قد يتجاوز فيقلب الحال: لم يأت على نفقته.. طالب بعثة والزواج من أجنبية خيانة. لا جوستينا ولا سواها..

مازالت السنوات تمتد أمامه وتراوغه مثل قطر ينشطر فلِمَ تعجّل الأمور.

راح يطلّ في عينيها ويمرر إصبعه على جبهتها حيث عضت إبهامه عضة خفيفة، قبلته وقالت:

– الإثنين القادم عطلة، بانك هولداي، واليوم ذاته عيد ميلاد أمي مارأيك أن تذهب معا إلى ليستر؟

فأجاب من دون اعتراض:

- حسنا ليكن!

- ونمر في طريقنا على معلم أثري أظنه سيعجبك!

- سيعجبني مادام يعجبك فأنا لم أزر إلا قلعة روبن هود:

كان مع عبد العال، يطالعان الدروع، بعض مخلفات الماضي الجميل، وقبواً لجأ إليه المتشبثون بالحياة خلال الحرب هؤلاء الذين يظنّ بعضهم أن روبن هود حقيقة والسيد تشرشل خرافة ثم يجلسان في حانة التقطا أنفاسهما على أحد مقاعدها، وكانت صاحبتها البائعة تشير بإصبعها إلى صورة فتاة صغيرة. طفلة جميلة. بريئة ذات ملامح ذكية، وتقول بابتسامة زاهية: هذه صورتي كنت في السادسة من عمري يوم اختبأت مع أمي وأبي في ملجأ القلعة هاربين من طيران الألمان واستفاق من نشوة غامرة وهو يسألها قبل أن ينصرف من الدكة حاملا كأسيهما حيث المنضدة عند المدخل:

- سيدتي مارأيك في الإثنين أيهما حقيقة؟

- كلاهما حقيقة وكلاهما خرافة!

وقالت تستفزّه من شتاته:

- سنرى جميع المعالم في لندن وريف نوتنغهام. أمامنا الصيف والعطل وعطل البنك هولداي وصمتت برهة لتقول:

- أرجو ألا تنزعج من إخوتي واخواتي ثم نعود في القطار بعد التاسعة!

– ولِمَ يضايقونني؟

فقالت مبتسمة:

– أنا من ليستر بيت أمي هناك، لي ثلاث إخوة غير أشقّاء من زوج أمي الأول، شقيقان وشقيقة، وأخ وأخت من زوج أمي الثاني، وأخت شقيقة من أبي زوج أمي الثالث!

معادلة تحتاج إلى كأس ليفهمها:

– كلهم أجدهم هناك؟

فنهز كتفيها وتمط شفتيها عن راحة واقتناع:

– إنّها فرصة لنتجمع كلّنا في عيلاد ميلاد والدتي، نحن لا نلتقي مجتمعين في أعياد رأس السنة لكنّ شملنا يلتمّ في هذا اليوم، أمي وأزواجها الثلاثة وأنا وأختي التي تصغرني بسنتين أمي بقيت على علاقة طيبة مع ازواجها، نجتمع كلّنا عندها!

وجاء عصر الأحد، فغادر المطعم الساعة العاشرة، وحين دخل البيت وجد في الصالة عاهرتين في الثلاثين من العمر تلعبان الورق خيّل إليه أنّه يوم قدم بالبترا رآى إحداهما تجتاز إلى دورة المياه، ولم تغفل إحداهما أن ترفع بصرها إلى التلفاز الذي لا يعنيه، لحظتها، أي شيء كان يبث. طلبت منه أن ينتظر في الصالة بضع دقائق حتى تفرغ من ارتداء ملابسها.

جلس مرتبكا على أريكة تقابل منضدة انتشر عليها الورق، ثم جذبه المشهد الناعم الهادئ. لقد ألف المكان، أصبح واحدا من أهل

هذه الدار. زيارة واحدة سابقة جعلته يشعر بالألفة مع ذلك وجد من المحال أن يلتقي مع جوستينا على سريرها. لا يظن نفسه أي عابر. انتبه إلى لاعبتي الورق، أحداهما بيضاء ذات وجه مورد وعينين ذكيتين تبحثان عن خبث أصيل.. وتهومان على بعض أسرار من المحال الكشف عنها. كانت ترفع نظراتها عن الورق بحجة النظر إلى التلفاز لتستوعب ملامحه.. هكذا تخيّل الأمر، أما الأخرى الطويلة الناعسة ذات الشعر الأشقر المنفوش التي يظنه أبصرها من قبل فلا يقدر أن يدرك عنها أي انطباع، وثمة حركة ما في غرفة مغلقة. لا يدري عددهن، ولا يهمه ذلك. التفتت إليه اللاعبة ذات العينين الذكيتين الخبيثتين:

– أتحب أن تشرب شيئا؟

Thank you I am ok

فاجأته التفاتتها وسؤالها فشك في أن تخمينه ليس على صواب.. كان يجلس مثل طفل اقتادوه إلى الصف في أول يوم دراسي، إبهامه في فمه ينشغل عن اللحظة الراهنة.. يضع احتمالات ساذجة ثم سرعان ما يغيرها.. واستعاد راحته وهو يتابع اللعب الهادئ، لابدّ من أن يراقب دون أن يعير اهتماما لما يدور حوله، بالضبط يرى نفسه قطا هادئا ينعم بالجلوس جنب مدفأة نشطة في عز الشتاء يتطلع بسيدته وسيده اللذين انهمكا في القراءة.. سنوات يرصد اللشمانيا، الطفيلي والبعوضة فأية مشاعر تلك تنتابه هذه اللحظة. وفُتِحَ أحد

الأبواب المغلقة فخرج رجل في الخمسين من عمره ذو ملامح شرقية، تجاهل اللاعبتين والضيف، وهبط مسرعا نحو الباب الخارجي، أعقبته العاهرة التي التقاها أول يوم قدم فيه يوصل البتزا. ابتسمت إلى اللاعبتين، وقصدت الحمام:رمقت اللاعبة ذات الوجه الطفولي رفيقتها، ومطت شفتيها وقالت:

– ناتالي هل صاحبك مازال صامتا!

Yes but this is not my problem

وهتفت وهي تلقي ورقتها على المنضدة وتخاطب صاحبتها:

Yes to be silent but game is over

وأطلت جوستينا بهيئة جديدة. كانت ترتدي سروالا قطيفة أزرق وسترة جلدية أنيقة بلون رمانيّ، بدت بزيّ ارستقراطيّ فخم. بسطت يدها نحو الجالستين، وقالت:

I forgot to introduce my boy friend Nadir said

فابتسمت الاثنتان، ورحبتا بالضيف وقالت الأخرى التي خسرت شوط الورق وهي تغمز بحاجبها:

– لا تنسي أن تقدميه لنا في المرة القادمة!

قال نادر وقد شعر ببعض الإحراج:

– هل أتكلم في الهاتف فأدعو سيارة أجرة:

– مركز المدينة قريب.. المشي أفضل.

ألقت آخر نظرة على مرآة مستطيلة جنب الباب الخارجي، ،

واستندت إلى ذراعه، راحا ينحدران نحو شارع "ماونت هوتن" الذي رآى الترام يشطره، بعد أكثر من ثلاثة عقود، بِسِكَّتِهِ الملتوية وأسلاكه المعلقة في الهواء. لن يضلّ الطريق إن رجع ماشيا متتبعا طريق السكة، فقبل سنين مضت بأسرع من وهم أو خيال عابر. استندت إليه، يدها تقبض على ذراعه. كان يفكر بشيء مقرف. كم رجل مرّ على جسدها قبل أن يأتي إليها؟ إنكليز.. عرب. أفارقه. من كان أكثرهم كرما معها. يدفعه الفضول:

– ماقصة ناتالي والرجل الخارج من عندها.

ضحكت باستخفاف:

– هذا لا يتكلم، يتصل عبر الهاتف يسأل عن ناتالي ولا تعجبه غيرها ثم يأتي يدخل عندها صامتا ويخرج منها مثلما جاء!

– كم عددكن؟

– ستة وأردفت :maybe sometimes five

راح رأسها يلمس كتفه، وقبضتها تزداد على عضده، وحين وصلا إلى حديقة البرتون، وقفت. نظرت في عينيه، وقالت:

– قبلني؟

رفع شفتيه عنها:

– قد يتعبك المشي، نعود نستقل سيارة أجرة؟

– كلا أبدا

على الرغم من ندى الليل، وضباب خفيف يشيع لزوجة على

وجهه إلا أنه لم يشعر بالتعب، ظن بضع قطرات سقطت على رأسه، فأدرك وهو يرفع عينيه إلى السماء أنه ليس المطر بل هو ندى يخرّ بصمت من أوراق الكاستانيا المصفرة. كان باب "البرتون" مغلقا ولا يفصلهما عن أقفاص الطيور عند مجرى الماء سوى السياج وبضعة أمتار، لا غناء أو زقزقة، فكل ما في الحديقة ساكن وهادئ ولم يعكر صفو الشارع سوى مرور سيارة أو همهمة من مكان بعيد، وقبل أن يعبرا الحديقة باتجاه رصيف جامعة ترنت جذبته ووقفت. قالت وهي تشدّه من شعره:

– قبلني قبلة طويلة!

كانت تدلق لسانها في فمه فلا يقشعر. لكن كم زبونا جاء اليوم. ثلاثة.. اثنان.. العواهر لا يعبأن بالقبلات، والمداعبة، جوستينا تؤدي واجبا مثلما يفعل مزارع في أرضه أو ومهندس وموظف في دائرة ما، سألها وهو يلتقط أنفاسه:

– هل تودّين أن نجلس في بار.

– هزت رأسها ويدها تختلس رطوبة على شفتيها:

– بل لنكن وحدنا ففي غد نسافر في رحلة طويلة!

٥

قد يبدو المطبخ بطعم آخر. صباح اليوم التالي، نهضت جوستينا تعمل القهوة، فالتقت" Robyn "وتبادلا تحية الصباح، إذن سيعرف فريدريك من صديقته أن نادر لم يعد وحده، أما تيموثي الذي يقضي هو وإحدى المراهقات العطلة في مكان ما فإنه سرعان مايعرف بعد حين فيدفعه فضول مألوف فيه إلى أن يسأل عن بعض التفصيلات.

لايهمّ. لا يختلف عن أيّ طالب بعثة.

يريد أن يعرف الآخرون أن لديه صديقة.

بين لستر ونونتغهام أقل من ساعة بالقطار، وجوستينا تتعجل وتنوي مغادرة منزل الطلبة مبكرين كي تلحق الحافلة. حماس غريب لم تفصح عنه. وخلال دقائق كانا في فكتوريا سنتر حيث غادرا إلى مكان ما.. استهلكت بصره بنايات متناثرة امتدت باتجاه الافق عند أطراف مدينة نوتنغهام. خضرة لامتناهية، منحدرات وسهول تعانقها هضاب، مشهد لا ينتهي. هي المدينة التي استوعبت العالم فرآها من قبل وبعد ثلاثين عاما. تتغير ولا تتغير. عند مواقف ينزل أو يصعد منها العابرون. غابات كأنها تهرب بخفّة من الرؤيا نحو الهضاب الوادعة، مزارع تسيجها أسلاك وتنتشر على رقعها الخضراء خراف، ويقر بعضه جالس يقضم وأخريات يتأملن الأفق، وثمة اسطبلات

لخيول تجلد ظهورها وجوانبها بذيولها الطويلة. إلى أين تأخذه هذه المجنونة؟ تداعب ذهنه حوادث قرأها وأبصر بعضها في التلفاز. رجل يقتل عشيقته في غابة. نهاية طريق زراعي تذبح سيدة في الخمسين من عمرها زوجها. كانت جالسة جنب النافذة تحدّق بالمناظر البعيدة، ورأسها يحتك بكتفه. المسافة بين نوتنغهام وليستر لا تتطلب أن نستدعي كل تلك المشاهد:

– إلى أين تأخذيننا؟

– مجنونة أليس كذلك؟

وصمت.. ظل رأسها يحتك بكتفه، والحافلة تقذف ماقي أحشائها وتلتهم من جديد، والمشاهد لا تنتهي، وبدأت تنتشر بقع من الغيوم فاختفت الشمس حتى توقفت الحافلة في "جستر فيلد":

– هنا ننزل لكنها ليست النهاية!

– ماذا؟ حافلة أخرى؟

تواريا نصف ساعة في مظلة لموقف آخر، كان يشعر أنه أصبح أكثر حرية. تحرر هذا اليوم من الذبابة، وفطر اللشمانيا. ورائحة المختبر.. أصبح طليقا من حرب ينتظرها وبقيت أخرى تنتظره. عيناه تجوسان في السماء فتبحران مع قطع الغيوم المتناثرة هنا وهناك، وحمام تكدس يلتقط بقايا طعام تناثر بين الرصيف وضفة ساقية تصب في نهر جانبي، وكان هناك مقابل الموقف ابن عرس يهبط من شجرة بلوط ويرتقي أخرى. أيقن أنه نسي كل شيء، لم تعد اللشمانيا

تسجنه على الأقل هذا اليوم بل هذه اللحظة. ما أشقانا حين نعرف ذات يوم أن حشرة قذرة تقتادنا مسافات طويلة فنصبح ذوي كيان مرموق، ذبابة تمنحنا درجة عالية.. وربما ما أسعدنا ونحن نراقبها في عالم الخفاء.. لوكانت جوستينا طالبة معه، يا ترى أي موضوع كانت تختار، هذه المرة تسللت يده إلى شعرها، أحس برغبة في تقبيلها.

- هذا آخر موقف؟

قالت عبارتها وضحكت، فتساءل:

- هنا تسكن والدتك؟

- هذه قرية كراب ويل لكننا نسير ميلين نحو بيت على التل!

حقا إنها لمجنونة، إلى أين تقصد، بيت، وتلّ، نمشي ميلين، هذا آخر موقف للحافلات، إما أن تذهب بسيارتك الخاصة أو تمشي ميلين، جوستيانا تقول إنها تشتري سيارة وبيتا بعد بضع سنوات، غير أنها الآن تمارس جنون المشي، خطواتها تسير به وسط طريق عريض يشق غابة كريف وود، وأرض مفتوحة على خلاء أخضر، مسحور مفتون ليقل عن نفسه مايشاء قبل أن يعود إلى سجن اللشمانيا. إلى أين نحن نسير؟

هل ترى ذلك البيت. "أشارت نحو بيت يرتقي على تلة شمال غابة تآكلت خاصرتها من ناحية التلال فشخصت مكان أشجارها المتهاوية بيوت ذات طراز حديث، فارتقيا التلة.

بدآ يلهثان.

وسرعان ما استقبلهما ممر عريض معبّد بآجر رمادي باهت يحيطه بساطان أخضران وثمة مدخل ذو ثمانية أعمدة لشرفة تمتد قبل الباب ببضعة أمتار..

كان ذلك هو مدخل البيت الفكتوري الفخم!

عالم آخر.

دنيا قديمة تظل عليه، تنوء بموج جديد من الزوار.. مسكت ذراعه والتقطت أنفاسها. لم تعد تثير في نفسه الغثيان قط. نسي أنها تبيع جسدها لتملك سيارة وبيتا فخما. كلّ يطمح للأفضل بطريقته الخاصة.. دول تدخل حروبا.. وبشر تعيش نزاعات.. وهو نفسه نادر.. نادر بن سعيد موظف الضرائب تبع حشرة وجرثومة ليحتل درجة أرقى.. أول امرأة علمته الحب. التقاها بشكل وإذا به يكتشفها بشكل آخر. سيذكر حقيقة وهو يتابع اللشمانيا أن الحامل والمحمول ثابت يمكن أن يتابعه فيضع حدا له، أما جوستينا فبدت له وهويقف معها على بوابة البيت القديم بوجه آخر، ليكن موضوعيا على الأقل هذه اللحظة التي يلج فيها بيتا لايعرفه من قبل، أليس الانبياء مقدسين، لكنهم مثلنا يأكلون، ويشربون. يتبولون ويتغوطون. ولابدّ أن يكون لما يخرج منهم رائحة كريهة وسموم.. أما نحن فيمكن أن ننسى ونتذكر الجميل وحده.. لا مشكلة إذن، فقد تأتي الانفعالات متأخرة بعض الأحيان كالخريف الذي لما يعد يلتهم بصفرته الحشائش وأوراق الأشجار، مسكت يده وجالت به على مشاهد غريبة عنه. من قبل رأى

تلك الحشرة الحاملة الوسيط من وراء زجاجة، والفطر أيضا أبصره ينمو ويموت بنوع من المضادات، المشاهد أمام عينيه لا تحتاج إلى مكرسكوب عالم قديم ملون يحثنا كي نتابع الخفاء.. أثاث فخم ضخم ساكن.. ألوان زاهية تعجز عن أن تنفخ الحياة في مقاعد وكراس أو خزانات عرض وملابس.. لوحات، وجوه عاشت قبل خمسة قرون تطل عليه وتتجاهله. عيناه وعيون الحاضرين تبعث فيها الحياة من خلال نظرات طويلة ممتزجة بدهشة وانبهار.. صور قد لاتشعر بوجوده. تقول له جوستينا هامسة: اللوحات ندرك جمالها حين لانقترب منها كثيرا لئلا نرى ضربات الفرشاة وآثار شعراتٍ تُشَوِّهها. يهز رأسه ويتراجع خطوة يتمعن في لوحة أخرى. يجدها محقة فيما تقول. تبهره لوحة لامرأة ذات وجه طويل وعينين ثاقبتي النظرات. أنف دقيق وعريض من جانبه الأيسر، كانت ترتدي قلادة بثلاث سلاسل وطوقا يحيط رقبتها من عشرين أسطوانة. في عيني السيدة نظرة جادة لا تخلو من صرامة وذكاء. "كونتيسة شروف بري". لا يعير اهتماما للاسم وتنتقل عيناه إلى صورة فوق الكونتيسة. كراس ومظلة تشبه العرش. حديقة ذات أشجار كثيفة. أيّ شجر يمكن أن يلتبس بذهنه تلك اللحظة.. مرت ساعة على انتصاف النهار وهما يتمعنان في اللوحات والأثاث. قلة هم رواد المكان، لكنه يبدو ينبض بالحياة في كل فصول السنة، والسؤال الذي يعنيه أين منزل السيدة الأم، ومظاهر عيد ميلادها من كلّ مايراه؟مع ذلك آلى الاّ يتعجّل في

سؤاله. قالت لنعد الآن. وهبطا من الطريق ذاته.

مسكت يده:

– اعتدت أن أزور هذا البيت كلَّ عام مرة خلال عيد ميلاد أمي!

هي نفسها قريبة منه بنفسها العذب، والصراحة والبراءة، وبعيدة في مواضع أخرى يكره أن يتخيلها:

– مكان جميل بلا شك هادئ!

قال ذلك وقد أخذه الهدوء إلى درجة السكوت. مازال بعض الغموض يخامر رؤاه. تأتي كلّ عام مرّة لترى حياة لاحراك فيها، وبالأمس وضع عينه على الجهاز فوجد ما لايُرى يتحرك، وبالأمس قبله أو الشهر الماضي وربما أبعد دخل قلعة نوتنغهام فرآى السيوف تتحرّك، عاش مع روين هود في الغابة، ودخل الملجأ من ضمن من أرعبتهم الغارات الألمانية، وهنا يحسه سكونا أقرب إلى الموت. مفارقة عجيبة بين سكون وآخر:

– هذا البيت هاردوك هول مبني بين عامي ١٥٩١ و١٥٩٧ مالكته تدعى بيزهاردوك.

صارمة الملامح بوجه رجولي ليست بجميلة:

– ماذا؟ السيدة ذات الوجه الطويل والنظرات الثاقبة؟

كونتيسة شروف بيري، سيدة القصر هي مثلي الاعلى، حين توفي والدها بدد أخوها ميراث العائلة، تزوجت وهي صغيرة السن. مات أزواجها الثلاثة. فتزوجت الرابع الذي مات فورثت عنه ثروة هائلة

انتقلت إليها ففاقت رجال الأعمال حتى أصبحت تحتل المرتبة الثانية في الغنى على النساء والرجال في إنكلترا.

يا ألطاف الله. لو زار مصر لكان يرى الأهرام عن بعد، يُقسِم أنّه لا يجرؤ أن يدلف إلى عالم محنط، لعنة الفراعنة هي نفسها لعنة مدام بيز هارد وك.. قد تختلف المشاهد في بلد عن بلد بيد أنها تبقى متكاملةً متآلفةً من حيث الجوهر. قطعت عليه سَرَحَانَه:

- هل اقتنعت أنها مَثَّلي الأعلى!

- ربما لكنك " تردد قليلا"لست شؤما مثلها!

- أوه دعك ياعزيزي من هذه الخرافة!

كان عليهما أن يعودا إلى موقف الحافلة لكن قطع الغيوم التي تركاها خفيفة في جستر فيلد لاحقتهما في طريق العودة. في البدء لاحت شفافة ناعمة ملساء لا تثير الريبة ثم نثت وانهمرت بغزارة، أحس بلفحة برد ورطوبة تدغدغان صدره، لكن يدها التي تقبض على معصمه جعلت بعض الدفء يسري في جسده وبدا شعرها المبلل مثل قطع كريستال ناعمة تتلاعب بالضوء، وقدغسل المطر والبرودة أفكارا سوداء راودته قبل قليل. ليضحك ويلعب كطفل. لن يموت لترثه زوجته فتتزوج من بعده.

إنه يشعر بالأمان معها:

- أووه أهكذا أزور أمك في عيد ميلادها فارغ اليدين.

- لا عليك سأشتري قنينة نبيذ وباقة ورد من مخزن محطة القطار

وبإمكانك أن تفعل مثلي!

بعد عودة متلفعة بالمطر، ومسحورة بمناظر تفضت عنها نشاط الصيف. المشي أكثر من ميلين والحافلة مرة أخرى، كانت شقة الأم تنتظرهما. وجدا الحاضرين يتأهبون للاحتفال، أعلنت وهي ترفع يده لأبيها وتخاطب إخوتها وزوجي أمها:

Nadir Said my boyfriend

يرتبك قليلا، ويعود إلى توازنه.

يحتضن الام وآخر أزواجها.. يصافح رجلا يحمل أسفل رقبته وربما يعرف فيما بعد أنه السيد نورتن الزوج الثاني، ثم يصافح البنات والأبناء. هل يا ترى يعرف هذا الحشد أن جوستينا تمارس البغاء. لا أو نعم.. كظم ارتباكه ثم استعان بالضجة.. تلاشى خجله، كان يوغل في عالم جديد مشحون بالخيال والنبيذ لم يعتده من قبل.

٦

هي المرة الثانية التي تقدمه فيها صديقا. ستنطبع تلك الصورة بذهن جاريه في السكن الجامعي، وفي ذهن كلّ من يراهما معا.. كان محاطا كل عام بذلك اليوم الذي يجتمع فيه مع الجميع، الوحيدون هم الذين يعرفون حقيقة جوستينا.. حفظ اسماءهم، ودخل معهم في حوارات مفتوحة. نادر سعيد من العراق. شقيق جوستينا الأكبر رالف في الأربعين من عمره. يأتي مع والده في بسيارته من ليفربول. مهندس مكائن يعمل على متن حاملات الطائرات، من حسن الحظ أنه لم يتخلف عن حضور عيد ميلاد والدته، أول لقاء تحدث عن الحرب قال عن نفسه إنه يعمل على متن حاملة طائرات لكنه مدني. عمل من قبل في هندسة السيارات ثم انتدبته حاملة الطائرات أجور العمل في البحر أعلى لذلك لا يعرف أي سبب دفع البلدين، العراق وإيران للحرب.. البلدان ليسا بحاجة لنفط.. ظل يبحث عن سبب كل عيد ميلاد يلتقيه غير أن جوسيتينا كانت تقطع عليه حديثه كل مرة، اندفعت تهدم نظريته في الحرب حين ذكرت الفوكلاند والسبب الذي جعل بريطانيا تحارب هناك على أرض غير أرضها.. يختلف الآخرون ويتفقون ثم في نهاية الأمسية يبدون راضين.. كان الزوج الثالث مستر أليان يشكو من ضياع الغابة يقول كلما جاء إلى

نوتنغهام وجد غابة شير وود تنحسر. فتقوم مكان أشجار الكستناء البرية بيوت جديدة. تسأله الأم :أين هم مجموعة الخضر المدافعون عن البيئة؟ فترد عليها لويزا الأخت الشقيقة: هناك شاعر من نوتنغهام كتب قصيدة يرثي بها الغابة قبل موتها، فردت الأم:أنت مغرمة بالشعر دائما، كان الجميع يتحدثون أحاديث شتى من الشعر إلى الحرب والغابة والبحر ماعدا "تيني" التي اكتفت بقنينة ماء، وهمست جوستينا في أذن نادر وهي تقوده إلى الطابق العلوي حيث الحمام:تيني فقدت كلية لها بسبب السرطان وربما تعاني من مشاكل في المعدة، فاعترض: لكن "إلف" يبدو خشنا. كان يعني شقيقها من زوج أمها الثاني الذي لفت نظره بغلظته لحظة دخلا المنزل.. عانق جوستينا جميع الأخوة ماعداه اكتفى بالمصافحة وقد لزم الصمت طول الوقت تهمس بأذنه: لا عليك منه هكذا هو طبعه، أما "لويزا" الأخت الصغرى الشقيقة الشاعرة فبدت مثل النحلة. تحركت أكثر من غيرها بين المطبخ والصالة ولعلها جاءت إلى المنزل قبل الجميع كانت الأكثر رشاقة وجمالا، وإن بدت ملامحها أقرب إلى إلف المهندس، غير أنه لم يحفظ خلال عيد ميلاد الأم لأول الاسماء كلها. انطبعت فقط في ذاكرته وجوههم الخالية من اللشمانيا. عالم الخفاء وجده لا يليق بوجوه الآخرين.. راح يبتسم ويحدث نفسه حذرا من أن يسمع هواجسه أحد: هل يُعقل أنه يرغب في أن يرى فطرا، يحاصره بزجاجة وبعض المركبات والسوائل، يأخذ مكانه على الوجوه. قد تبدو بعض

الملامح أفضل، والأخرى بشعة مع اللشمانيا. فالجميع سعداء، وفي لحظات توقفت الثرثرة.. انحسرت سنوات، وبانت كلها في يوم واحد هو ولادة الأم جوزي. لحظة صمت، وقف الزوج الأول باتريوس وأخرج ورقة صغيرة من جيبه:

– عزيزيتي جوزي أنت زوجة رائعة وأم عظيمة. أنت تعرفينني لا أحب الكلام الطويل. بسيط في حياتي وسهل وإذا كان هناك شيء أحب أن اذكره فهو تلك الايام التي قضيناها معا. عيد ميلاد سعيد.

صفق الجميع ونهض الزوج الثاني، وتحدث ارتجالا:

– أنا سعيد جدا بهذا اليوم، لأنه يجمعنا جميعا. آباء وأبناء، مملكة حلوة لملكة رائعة اسمها "جوزي"، ونهض الثالث والد "ليزا" و"جوستينا" وقال:

– حسنا، هل من شيء جديد، كلّ عام نعيد الكلمات نفسها، وأنا شخصيا آمل لجوزي حياة مديدة لكني اعتدت ان أقول كل عام طرفة عابرة أختلقها أو أسمعها.. هذا العام تسمعون مني نكتة تخصني أنا وجوزي للمرة الأولى"توقف ارتشف جرعة من كأسه وواصل": ثاني يوم ولادة ابنتنا الكبرى "جوستينا" وصلت إلى المشفى من مانشستر ثم اكتشفت أنه لم يبق معي نقود تكفي لشراء باقة ورد، نظرت حولي فأبصرت حديقة المشفى الخلفية عامرة بزهور مختلفة، تلفت مرارا وبدأت أقطف ورد الحديقة، ولم أع أن "جوزي" كانت تجلس في غرفتها أمام الشباك وتتطلع إليّ بدهشة فدخلت وعانقتها، وقدمت لها

الورد، صمتت ولم تخبرني إلا بعد أيام!

استغرق الجميع في ضحك صاخب وتبادلوا الأنخاب، كان نادر يرفع كأسه نحو جوستينا فقالت الأم "جوزي":

– لقد قلت لك كانت أجمل باقة أتلقاها!

فردت جوستينانا بصيحة:

– ولن تتلقي مثلها قط!

ثم نهضت "لويزا" وراحت تتحدث بلغة الشعر:

لاشيء في هذا العالم أجمل من الأم

أمي جوزي ليس هناك ماهو أعظم منك

لانك جوزي

لأنك أمي فأنت الأجمل دائما

عندئذ تطلع إلف إلى "جوستينا" بنظرة ذات دلالة، قصد مكانها وانحنى يهمس في أذنها فلحقته إلى غرفة تطل على المدخل، ران صمت على الجميع وبان قلق بوجه الأم، فمسحت لويزا على يد أمها برفق. ابتسمت وعقّبت:

– لا تقلقي سيعودان!

بعد لحظات كأنّ الجميع حبسوا خلالها أنفاسهم ، انفرج الباب، وأطلت جوستينا بملامح تدل على الغضب أعقبها إلف الذي لزم مكانه واجما كأنه يراود نفسه بين الصمت والكلام عندئذ نهضوا واخذوا يغنون :

happy birthday to mum happy birthday to Jozy

راحت السكين تهوي على الكعكة ثم تبادلوا الأنخاب، وفجأة كما لو أن عاصفة فارغة تمر من دون أية ملامح تسبقها أو أي أثر يدل على قدومها ترك "إلف" الفظ كأسه وقطعة الكعك واندفع إلى حيث تجلس أمه، انحنى يعانقها.. قَبّل وجنتيها وانفجر في بكاء هستيري.. لحظات مرت ثم خرج من دون أن ينبس ببنت شفة فشيعته الأم بابتسامة باهتة وران صمت على الجميع، فتحدثوا بهمس. كانوا ينسون إلف تماما. . أبوه وأخته احتضنا الأم.. لكن حالما أعلنت الساعة العاشرة كان كل منهم يغادر إلى مكانه البعيد!

٧

بدا هناك تغير واضح المعالم في شقة الطلاب، فقد تركت جوستينا في خزانة الملابس عند نادر منشفة وملابس نوم وفرشة أسنان. أحيانا يصحو قبلها فيقصد المطبخ بعد الفطور، ويشعر بالزهو إذ تجلس قبله فيظن أنها التقت أحد الساكنين أو واحدة من صديقاتهما. كان قد أخيرها بعقدة تيموثي والقاصرات، فارتسمت على ملامحها دهشة ما.. كان يرى أن الأوروبيين بخاصة الإنكليز أهل البلد يمكنهم أن يتجاوزوا من دون عقدة ما وسواء اختلف أو اتفق مع جوستينا حول تيموثي وأمور أخرى فإنها تظل الأنقى.. إنه الآن كونها معه لا يختلف عن شريكي السكن. له صديقة مثلهما، ولشدما خشي أن تبوح بالسرّ، فتريد في باديء الأمر أن يصارحها. راودته الفكرة حالما عادا من ليستر، هي المرة الثانية التي تقدمه فيه صديقا boy friend. تريد في عرضه، وهاهو السؤال يحاصره، لا يريده يتشظى.. يتبعثر فيتطاير مع دخان القهوة الخفيف المتصاعد من فنجانيهما.

بلا شكّ لا يروم أن يصبح مسخرة:

– جوستينا آمل ألا يعرف فريدريك وتيموثي عنك..

قالها بابتسامة مرة ومالت عيناه نحو الفنجان كأنه يهرب إلى مستقبل مجهول:

– وما الداعي لأن أتحدث عن الموضوع.

تجرّأ اكثر:

– لأنك تهمينني أكون صريحا معك حدَّ السذاجة. لا أريد أن أعرف متأخرا. هناك حيث تسكنين قدمتني صديقا وفي منزل والدتك أيضا هل تعرف أمك أنك..

فضحكت وقضمت قطعة الخبز المدهونة بالبزبدة والمربى:

– يمكن أن أخفي ذلك عن تيموثي عشيق القاصرات وفريدريك، ويمكن أن أذهب إلى الجامعة معك ولا أخبر أحدا لكن ليس هناك من سبب واحد يجعلني لا أخبر أمي بما أفعل أو إخوتي!

بقي صامتا يبحث عن أية كلمة مناسبة.. اعتذار، اعتراه خجل، وهربت من ذاكرته الكلمات. إنها صريحة صراحة الأطفال وبريئة مثلهم.

– آسف فقد أكون..

– لاداعي للأسف تخيّل أخي إلف الوحيد الذي يعترض!!

لم يشغل نفسه ليلتها بما حدث بينها وأخيها، فكلهم أخوة وأزواج أم وهو الغريب الوحيد بينهم وما أثار دهشته فيما بعد أن لا أحد منهم اصطحب صديقة أو صديقا، مهما يكن فقد ظهر أخوها إلف مثقلا بالغثيان عنيفا مع نفسه أكثر من أن يكون عنيفا مع جوستينا:

– تقصدين ساعة انفرد بك؟

– سألني مادام عندي صديق فهذا يعني أني تركت البغاء!

– لهذا كان ينظر لي ولك نظرات مريبة!.

ردت بجدية كما لو أنها تدافع عن موقف تلتزمه ولاتفرط به:

– إلف من جذور كاثوليكية والده إيرلندي يرى النقاء الحقيقي في ثقافته الروحية يظن أن البغاء يعني أن تمارس المرأة الجنس مع عدة أشخاص مقابل أجر لكنْ هناك جانب آخر يغفله إلف وأمثاله كثيرون فقاطع باهتمام: ماذا تقصدين بالجانب الآخر؟

– التحرك لعقد صفقات مع رأسماليين كبار، البغاء يدخل في تجارة الموز، والنفط، ووسائل الإنتاج تلك أمور لا دخل فيها للمشاعر والأسف.

توقفت عن الكلام، والتفتت تسأله:

– الذي يهمني هو أنت!

هز رأسه، وقال:

– أنا لا أتدخل في شؤونك مادمت تؤمنين بما تفعلين!

– هذا هو السبب الذي جعل أخي إلف ينفجر هو الوحيد الذي يعدّ هذا العمل في منتهى القذارة!

– وماذا عن أمك والآخرين،

– لا يهمني إخوتي وأخواتي ولا أبي، باديء الأمر انزعجتْ ثم تجاهلتْ، قلت لها أعمل في بيت يملكة رجل بوليس متقاعد يعرف القوانين، قد يأتي زبون إلى المنزل فأعجبه أكثر من غيري سوى أن شغلي الأساس مع تجار كبار في الاستيراد والتصدير هذا برأيي

أفضل من عمل في محطة بنزين يدر عليّ ٤٠٠ باوند كل شهر!

مع ذلك يكاد الشك يساوره. هل تكون معهم مثلما هي معه. لعلها لا تراهم ذئابا يلعقون جسدها البض. عجوز في الخامسة والسبعين ملياردير.. تاجر مليونير في الستين.. هناك شباب.. على الأغلب يحوم خياله حول كبار السن الباحثين عن صفقات عبر قنوات الجنس، أهي الغيرة حين يتخيلها ، في أغلب الظن ، كما يشتهي مرّة واحدة كل أسبوع بين أحضان مليونير عجوز. حلوة عذبة في الثانية والعشرين تحوز مالا لا يحلم به أحد وبعد أربع سنوات أو خمس تشتري بيتا وتقتني سيارة، وليس أمامه إلا أن يتأكد حين يزور لندن. في البيكادلي يمكن له أن يختبر مشاعرها عن بعد أو على أقل تقدير شعوره هو، يجد هل تختلف عن الأخريات؟وقد جاءت الفرصة. الرفيق الحزبي في الاجتماع النصف شهري طلع عليهم بخبر جديد. ليستهلك التقرير السياسي الذي لحقهم إلى نوتنغهام نفسه، ولتذهب المحاضرة إلى مسار آخر. الوطن يلاحقنا في كلّ مكان ويمكن أن يدلف مع اللشمانيا.. يارفاق إيران من مصلحتها إطالة الحرب. العرب متضامنون معنا، ومعظم دول العالم. سمعتنا طيبة وخصمنا يثير الريبة في أغلب البلدان، سنكون نحن طلبة البعثة يوم الإثنين في لندن بمظاهرة احتجاج، لايهم الرفيقَ المسؤولَ أن يغيب طالب عن محاضرة أو تجربة مختبر يوما واحدا. هكذا هو الأمر. أنت الأول على قسم البيولوجي، بعثة إلى بريطانيا.. لست معارضا ولا تنتمي

لأي حزب آخر. والدك من ذوي الدخل المحدود. موظف في دائرة المالية، وأقصى ما يحلم به أن يصبح مديرا للمال في التنومة وربما أبي الخصيب ولعله الزبير، والحمد لله أنه اشترى لكم بيتا من مال حلال، تقول جوستينا لك، هذا شغل.. صفقة تجارية.. استيراد وتصدير. البغايا لا يأخذن مساعدات من مكتب العمل كما يفعل العاطلون واللاجؤون.. يدفعن ظرائب.. مثلما تتعرف فتاة على شاب في مرقص فتمضي معه إلى منزله ثم تتركه وفي السبت التالي تذهب مع آخر، وهكذا، أما إلف قليذهب هو ومذهبه الكاثوليكي إلى الجحيم، العالم مليء بالخير أما القيامة فلا تظن جوستينا أنها سيئة.. الله هذا العظيم الذي خلق الكون اللامتناهي يخوّفنا بشيء اسمه النار مثلما تخوف أم طفلها حين لا تشتري له لعبة أو حلوى.. لم تكن مرغمة بل وجدته أقصر درب للثراء أما ماالذي كان يحدث له لو قابل دعوتهم بالرفض.. انضم للحزب مرغما ليفوز بالبعثة وإلا لكان سيعمل بلا شك مدرسا في إحدى الثانويات، فيحتل مكانه طالب من رتبة أدنى، وقد لا يتركونه سيوقع ويصبح شاء أم أبى رفيقا ذات يوم.

تبعيث التعليم

التقرير السياسي يمتد من الثانوية إلى الجامعة حتى نوتغهام!

يلاحقك، وسوف تصحب معك صفقة في صندوق صغير.

مهنة..

عمل..

صفقة دكتوراه قريبة الشبه بما تفعله جوسيتنا التي تتحلى بجرأة غير معهودة، فلا تخاف القيامة بصورة يراها عليها شقيقها إلف. مسوغات لا بدّ منها.. كلاهما يعقد صفقة. لم يظنّ وهوجالس في حفلة عيد ميلاد الأم أنهم يعلمون مهنتها سوى أن خجلا ما انبثق من أعماقه بعد حين لكنه لا يريد أن يفقدها. من حقنا أن نحوّل بعض ساعات العبث واللهو إلى عمل.. مهنة.. تجرب كلّ شيء.. من حقك.. توقيع يجعلك طالب بعثة.. صفقة والسيد سعيد مبارك موظف المالية يضمنك.. سيبيع بيت العائلة إن لم تعد يسدد كفالتك، فهل تحقد بعد على إلف.

قضى ذلك المساء في المطعم، حضّر السلطة وأعد سيخ الشاورما، ثم انصرف، تابع التلفون وحمل البتزا إلى بعض البيوت القريبة في البوليفارد، وبيتِ عجوزٍ في راد فورد. فكّر أن يبقى في المطعم إلى الساعة الثانية عشرة فيقصد محطة القطار. لا مختبر في غد ولادوام. يوم تتحررّ فيه اللشمانيا من مراقبته.. يوم واحد يارفاق لا يضرّ. نحن أصحاب سلام ولابدّ من أن تصل كلمتنا إلى العدو، وأخرجه من تأملاته مؤشر ساعة الحائط الذي عانق العاشرة، فغادر من الغرفة الخلفية، وسأل أنجم:

– هل أستطيع أن أذهب الآن فعلي النهوض مبكرا غدا لأستقل الحافلة إلى لندن!

– لك ماتريد لكن هل من أمر؟

– ياسيدي أنا طالب بعثة والسفارة العراقية دعتنا إلى الخروج في مظاهرة تحث إيران على وقف الحرب!

فكرر أنجم عبارته المعهودة، وهز رأسه بين السخرية والأسف:

– نحن المسلمين من دون عقول إيران لا تحتاج نفطا والعراق لديه نفط ستقف الحرب حين تنتهي آخر قطرة!

فأجابه شبه مقتنع، وهو يستعيد كلمة رالف البحّار:

– يبدو أنك على حق!

وغادر المطعم هابطا باتجاه المحطة.. وفي رأسه فكرة جديدة أطلت عليه من شارع سمع به ولم يره حتى هذه اللحظة. مال نحو الطريق العام، وخطا بتؤدة. شارع البيكادللي الذي لم يره بعد يطل عليه في مثل هذه الساعة. أكثر ما يزعجه النهوض قبل الساعة الخامسة، عبء لابدّ منه لتجنب مضاعفات مزعجة، كان الجو يميل إلى البرودة والشوارع التي يألفها صامتة تكاد تشقّ عن وقع قدميه وحدهما. إن لم يمش بطيئا فسيصل إلى دار الطلبة بربع ساعة. يغادر إلى لندن بحافلات أعدتها البعثة وبإمكانه أن يعود بالحافلة نفسها فيتجنب الخسارة، وأيّتما فكرة تدفعه أن يتحمل طاقة العودة. لو كان أبوه غنيا لطلب منه مبلغا يدفعه في شراء أجهزة لمختبر تحليلات يحلم به في البصرة لكن ماذا عليه أن يرى في موظف بوزارة المال يضع في حسبانه الحلال والحرام.

كان يخشى أن يسرقه النوم فيضطر للاعتذار!

وفي الصباح نهض مبكرا قبل الخامسة. الظلام لما يزل يخيم على المدينة، ستنطلق الحافلة الساعة السادسة، وبعد ثلاث ساعات يصبحون في الهايد بارك. خلال الاجتماع الأخير تساءل الحاضرون، وهم يتلقون نبأ التظاهرة، فأخبرهم الرفيق المسؤول أن السلطات البريطانية ترفض التجمع أمام السفارة العراقية أو الإيرانية. يلتقون في الهايد بارك ويوغلون في شوارع لندن. لايهمّ. في أيّ مكان يسمع الناس صوتهم. نحن لا نحب الحرب. العراق مرغم عليها. بهذه الصورة نظهر حقيقتنا للإنكليز.. كان الظلام يخيم على محطة برود مارش وعندما دخل في صالة الاستقبال استسلم ثانية للدفء. رآى وجوها ألفها وأخرى لم يرها من قبل، ووجد الرفيق المسؤول نفسه يقف بباب الحافلة جنب السائق ويتطلع بالوجوه. اتخذ مكانه جنب النافذة. تضايق حين لم ير عبد العال، وخشي أن يجلس جواره طالب لا يعرفه فيجامله بثرثرة فارغة عن البلد والحرب وانتصارات الجيش الاخيرة، وقد يذكر له جاره أن له أخا استشهد في الهجوم الأخير. حاول أن يعود للنوم ثانية، مرت دقائق فصعد عبد العال رآه يلهث فسأل بفضول:

– تأخرت ؟الحافلة على وشك أن تغادر !

– كاد النوم يخدعني!

– خشيت ألا تأتي فيحتل مكانك جنبي طالب لا أعرفه!

ضرب عبدالعال صدره بقبضتيه وهو يقول:

– صدق من قال النوم سلطان!أنا أحسدك يا حميدة الآن إذ عدت للنوم بعد أن أزعجتك دقائق!

فابتسم نادر ومال إليه كأنه يهمس:

– ولِمَ لمَ تأتِ معك؟

– يا عزيزي حميدة موقفها مطابق لحكومتها المتعاطفة مع إيران.. ترى أن الثوار الإيرانيين تأثروا بالثورة الجزائرية!

فقاطع نادر بابتسامة:

– أظنّ ذلك كلاما فارغا!

– والأدهى أنها غاضبة إذ تحمّل العراق قتل وزير خارجيتهم!

– وأنت ما ذا تقول!

– كلّ شيء جائز!

– عبدالعال عجيب أمرك "يقول عبارته من دون تردد" لولا أني أعرف طيبتك وأثق فيك.. لكن لا أفهم هذا التناقض ترى أن العراق ماكان عليه ان يبدأ الحرب أو ينجر إليها ثم تذهب متطوعا فيها خلال عطلات الصيف!

فرد بهزة من كتفيه:

– أبدا ليس هناك من تناقض.. أولا أروم بتطوعي ان أن أثبت أني لا أنتصل من الحرب وإن كان البلد هو البادىء بها فأنا بعض منه "التفت إلى نادر مؤكدا"سلوكي لا يختلف عنك أنت ترى إيران بدأت الحرب لكنك ستكون جنديا حين تناقش أطروحتك وتعود فتواجه

الحرب إن لم تكن انتهت.

– أنا مازلت عند موقفي أن إيران بدأت وساورتني الشكوك يوم أذاعت بغداد برقية جواب قائد الثورة إلى البكر وقضية السلام على من اتبع الهدى!

فتأمل عبد العال لحظة وقال:

– ايران لم يكن عندها جيش كي تبدأ الحرب. جيشها انحل وليست بقادرة على شن حرب كان المفروض أن نترك الثورة تأكل نفسها، ولنفرض أن برقية الخميني خارجة عن اللياقة الدبلوماسية والأخلاقيات..

قطع عليه حديثه تثاؤب طاريء عندئذ وجدها نادر فرصة ليهرب إلى النوم فقال:

– دعنا نكمل نومنا ولعلنا لا نصحو إلا عند الهايد بارك!

– هذا أفضل أنا أيضا أشعر بالنعاس!

ومال برأسه على النافذة فداعبت خده برودة الزجاج فأغمض كلاهما عينيه ليبحثا عن الصباح في الهايد بارك!

٨

ترجلا من الحافلة الساعة العاشرة، وكانت هناك حشود لحافلات وصلت من مقاطعات أخرى ثمّ غادرت، وثمة بعض من موظفي السفارة.. استمعوا إلى هتافات يمكن أن يترنموا بها.. لايمكن لأحد أن يخرج عما هو مرسوم من قبل. لا نريد ارتجالا يسبب لنا إحراجا يقول رجل السلك الدبلوماسي. وهاهي لندن تستقبله ضمن حشد التمّ لينطلق إلى حيث لا يدري، فيظنّ أنّها تفتح ذراعيها له وحده بجوها الضبابي الخجول.. أم الدنيا.. لها طعم آخر. زارها بعد أسبوع من وصوله إلى نوتنغهام. لحظتها شعر أن المدينة ليست غريبة عنه. أليفة بحق. أهو الصخب الذي يجعلنا نحن القادمين من الفوضى نظنّ أنفسنا نعرف الأماكن المزدحمة؟ من قبلُ سمع بمدن كثيرة.. طوكيو نيويورك. باريس.. لا يظن أن هناك مدينة تشبهها.. عجوز شابة.. جسد جميل وخزته السنين فتركت أثرها فيه ولم تشوهه.. رآى متحف الشمع.. وساعة بيغبن.. معالم يمكن أن تختلط في ذاكرته، يارى هل يشعر بغربة لو أنه حصل على مقعد دراسي في جامعة لندن أو أية من جامعاتها الاخرى. المختبرات نفسها. واللشمانيا هي هي لا تتغير أبدا سوى أن الصخب في كثير من الأحيان يطرد عنا الكآبة. وفي أقل من لحظات كان يلتفت إلى الطابور الطويل واللوحات. الدبلوماسيون

والطلاب أو رجال أعمال وأمثرون تستهلكهم أحاديث عامة عن الحرب والهتافات المتفق عليها وهومشغول بلندن. عبد العال قريب منه وبعيد عنه. أحيانا يحطّ مثل نحلة هنا وهناك. نحلة صافية لا تلسع.. يرى أن العراق بدأ الحرب وفي ظنه أن تطوعه في الجبهة أكثر من مرة يشفع له.. استدرجونا إلى فخّ لو كنا نحس ونسمع ونرى لوجدنا أن الثورة الفرنسية تماسكت حين هوجمت من الخارج. هل يجرؤ على أن يقولها علنا في التظاهرة. يتحدث يبتسم. يهز رأسه ثم يكرر الكلمات الموعودة سلفا. أوقفوا الحرب.. العراق لن يرضخ.. عبارات تتكرر كل يوم وفي كل مكان على لسان الأطفال والشيوخ والشباب. إيران أوقفي الحرب.. يذكره ذلك بالمدرسة الابتدائية والثانوية يوم يجمعهم المعلمون والمدرسون في الرحلات المدرسية، وعند المناسبات الوطنية ينشدون للوطن والحرية والسلام بكلمات قد لايفهمون بعضها. الصورة نفسها تعود بإطار آخر في شوارع لندن. طلبة بدرجة بكلوريوس ودراسات عليا يصفّهم مسؤولون حزبيون. لوحات بالعربية والإنكليزية. كان التلاميذ يتنافسون أمام معلمهم ليحوز أيّ منهم شرف حمل اللوحة. إيران جاك جاك حزب البعث الإشتراكيّ. كلّ شيء وفق خطة يتحرك بها التلاميذ. فلسطين حرة حرة. فلسطين جاك جاك..

فمه يهتف

.. يردد مايسمع..

عيناه تتابعان الصور.. الإعلانات على الحافلات.. أفلام السينما.. لوحات المطاعم.. وجه مستر بن الساخر على حافلة.. تشرشل وكلب صغير ضخم الرأس نحيف الجسد open days London theater فمه يريد عن غير وعي "أوقفوا الحرب"وعيناه تحومان كالنسر في شوارع يعبرها. تقعان على عبد العال فيجده مشغولا بالهتاف.. صحيح العراق بدأ لكن ماكان على إيران أن تستمر.. عبروا شوارع وقطعوا مسافات.. fitness.. امرأة بحجمين تبدو بصورة ثقيلة وأخرى رشيقة.. من الهايد بارك انطلقوا وإليه يعودون.. يارفاق.. ستقف الحافلات في المكان نفسه الذي ترجلتهم عنده، في ذهنه أمر آخر.. راح يخطط ليعود وحده.. الآن في رحلة العودة أصبح حرا.. غادر الهايد بارك معرضا عن الحافلة وادعى أمام عبد العال أنه سيزور عائلة يعرفها.. هبط محطة الأنفاق.. لندن الصاخبة ستكلفه مبلغا إضافيا لا يخص صفقة اللشمانيا.. ليس بنادم.. كانت الرغبة تدفعه لئن يكتشف تلك العوالم التي يعرفها ويجهلها. قد تكون الاشياء والأفكار قريبة منا جدا فنجهلها مع قربها الشديد لنا. بين يديه اللشمانيا.. يراها كل يوم. يتابع حركتها، يكتب عنها ولا يفهم جوانب كثيرة فيها. جوستينا أقرب الناس إليه. تتأوّه.. تمنحه جسدها. تحتضنه بعنف.. توقف الترام في محطة البيكادلي صعد مهرولا درجات طويلة وخلّف مدخل المحطة وراءه.

كان يحث السير نحو حارة سوهو..

البيكادللي الذي يشخص أمام ناظره.

يتلتفت كأنه يتأكد أن لا أحد يراه.

عرب وأجانب وسواح.. قابل عربا وأجانب. آسيويون وأفارقة.. تجارة وبغاء.. صيف لندن وشتاؤها واحد.. بردها وضبابها، توغل في بداية سوهو، محلات، وشقق تطل.. بنايات قديمة، وعلى الرصيف عند تقاطع الشارع العريض بآخر فرعي وجدها تقف بشكل مريب. متوسطة الطول ممتلئة خضرة على جفنيها العلويين. جسد مثير وابتسامة مصطنعة. عالم آخر جديد قديم:

Sorry how much

بمزاح وغمزة:

Ten pound

اقتادته إلى قبو يبعد خطوات يسيرة، يا ابن الكلبة كم من الجنيهات.. دعها لأمك.. لو عاملتها ستربح باوند أو اثنين.. ولعلها تسبّكَ وتشيح بوجهها عنك.. هبط خلفها درجات معتمة فطالعه مصباح خافت يتدلّى من السقف، وخيل إليه أنه رآى خيوطا فخالها صبغا قديما متآكلا أو خيطا من "مخاط الشيطان". غرفتان أحداهما مغلقة الباب والأخرى عن يساره جاهزة. أشعلت المصباح وردت الباب وراءها. بدأت تتعرى.. خلعت قميصها انسلت من تنورتها ثم حمالة النهدين.. تجردت عن ملابسها الداخلية ثم ارتمت فوق السرير.. راح يخلع ملابسه، بحث عن رغبته المحمومة فوجدها مازالت تراوده،

وحين انتهى من خلع ملابسه بسطت يدها تستقبله. تعال.. com hurry up أطلقت ضحكة خافتة، واستقبل الفراش بركبتيه، تمايل رأسها نحو كتفيها ثم رفعت يدها إلى فمها وبللت أطراف أصابعها بريقها.. تدفق منها لعاب كثيف دعكت به ذلك المكان من جسدها.. come

فجأة..

تراخى جسده..

مات كل شيء فيه. تلاشت الرغبة.

بقايا خشبة يابسة. عود كبريت مهمل. اشتعل وانطفأ، فذوى في حاوية على الرصيف.

غثيان..

قرف لا نهاية له..

كانت دلال تطل عليه من تحت قبعة المصباح.. هو الأستاذ المتعجرف. تذمر الطلبة والطالبات. قالوا عنك يا نادر إنك متعجرف. صورة طبق الأصل للدكتور ناصر أناني. أصعب أستاذ. بخيل في العلامات. يمكن أن يحوز أي طالب مجتهد ذكي على أكثر من تسعين عند الاساتذة، أما أنت فلا تمنحه أكثر من ثمانين هذا إذا كان من النوابغ. تآمر عليه الطلبة، استدرجته دلال إلى القبو وصفعته ثم صرخت. تلوثت سمعته. وبخه العميد فبان عليه الانكسار والخجل.

– مالك تعال؟

....

– أنت لم تمارس من قبل؟

..

– لا تخجل؟ أنت عربي؟ الكثيرون مثلك بدوا خجولين وانحلت عقدتهم معي. تعال.

أمامه على الحائط الكونتيسة ذات الوجه الطويل والنظرة الثاقبة بطوقها ذي الزعانف العشرين وشعرها المنتفش كالزغب.. يداها مبسوطتان. ابتسامتها تتسع، ودهشتها أيضا:

– أنا متاكدة أنك ستعود إليّ ثانية أنت رجل.. فحل.. تعال.

ماتت رغبته بين القرف والغثيان. في أي مكان يتقيأ؟جوستينا دلعت لسانها في فمه وضمته.. راحت تتأوه. تراجع الى الخلف وهبط من السرير إلى الأرض الرطبة، ارتدى ملابسه على عجل، أخرج من جيب سترته الداخلي عشرة جنيهات، وضعها على المنضدة الصغيرة. راحت تحدق فيه من دون أن تعلق بأية كلمة. لحظات صمت باردة. لقاء ابتدأ شبه صامت وانتهى كذلك. فتح الباب وصعد درجات القبو.

كان بعد لحظات على الرصيف، بين المشي والهرولة. هرب من كلّ شيء ولاشيء. لا يرغب أن يلتفت إلى الخلف. يمكن أن تكون هذه آخر مرة يزور فيها لندن. ربما تستدعيه البعثة مرة أخرى عندئذ سيأتي ويرجع بالحافلة، وقد أدرك في لحظة هروبة من سوهو أنه يقرف من كل شيء، ويكره ويحب مثلما يرغب سوى أن جوستينا وحدها هي التي تبدو له خالصة النقاء.

٩

كانت السنوات والأحداث القريبة والبعيدة تتآكل في عيد ميلاد الأم السنويّ، كلّ عام يكشف عن نكتة جديدة يرويها الزوج الثالث، أو عما يخفى عن العائلة الكبيرة المشتتة من بعض الأمور وفي السنة الرابعة انتبه إلى أن سنيتا التي تكتفي بقدح ماء أصبحت أكثر ذبولا ونحافة ولم يفته أن يلتفت إلى نظرة خاصة تلقيها الأم بين لحظة وأخرى على ابنتها التي لا تراها إلا مرة كل عام.. وسط الجلسة الأخيرة راودته اليشمانيا أكثر من الحاضرين أنفسهم. هم عائلته لكن اللشمانيا طموحه ولا بدَّ أن يضحي بأحدهما على حساب الآخر. استثنى سنيتا.. حبّة بغداد تجعلها أكثر تعبا. لايدري ولا يحبّ أن يسأل:هل بدأ السرطان بالكلية السليمة الوحيدة أم أصابها عارض آخر سبب لها الهزال. إلف مازال بحدته وشراسته. الوحيد من بين الحاضرين الذي لا يمكن حَشْره في زاوية ما. بقي فظا وهو الوحيد الذي لا يتغير، الكل يضحك وهو لايزيد عن ابتسامة مشوبة ببعض الكدر.. ليذهب إلى الجحيم أو ينتحر وإن كان أخوك، فأطلقت ضحكة عالية وقالت:لا بأس إنه كاثوليكي بحت يؤمن بمعجزات العذراء وبركاتها لو كان بروتستانيا لفعلها، تأمل لحظة في كلام جوستينا، وشعر بفراغ رهيب، ياترى لو أعاق حدث ما إلف عن حضور عيد ميلاد الأم هل

كان لذلك العيد طعم مثلما هو عليه الآن، لايتحدث غير أن وجوده كاف ليبعث الزهو. ليس الغريب أن يشعر بفراغ حين لا يلقي نظرة كل يوم على ذبابة اللشمانيا الحمراء ذات الشعر الناعم. ياترى لو وفق لإنهاء بحثه وهو يوشك على ذلك فهل يتجاذبه شعور بالوحدة. كثير من الأشياء الصغيرة والكبيرة لا نحبها لكننا نشعر أن وجودنا مرتبط بها. حقا شعر أن تلك العائلة الكبيرة المتناثرة عائلته هو قبل أن تكون الأم حلقة الوصل فيها. وقبل آخر عيد ميلاد تغيرت الأمور، سيغادر وفي جعبته شهادة الدكتوراه. انتهى كلّ شيء وحاصر اللشمانيا. انتصر عليها ولم يهزمها.. مختبر وبحث على الورق لعينة جلبها معه من البصرة.

كان يحاصر نفسه ولا مخرج أمامه.

يغلق عليه الدائرة تماما.

والحرب لما تنته ، فهل تحدث معجزة يوم يهبط في مطار بغداد!

مع ذلك أصر على موقفه، عبد العال نفسه كان يأمل أن تنتهي الحرب بعد عام. بضعة أيّام تحولت إلى أسابيع.. والأسابيع أشهر ثم سنوات.. انشطرت. بكتريا لا تقدر على حصرها في علبة.. كل طالب بعثة بات يراهن على تلك النهاية وآخر مرة اعتذر عن الذهاب إلى لندن. تحدث في الاجتماع الشهري أن أستاذه عين له لقاء مطولا في اليوم ذاته يوم التظاهرة الموعودة في الهايد بارك.. كانت المظاهرات - كالحرب- تنشطر كل عام بهتافاتها ولوحاتها، ولندن تنسخ نفسها

مثل بكتريا غير قابلة للفناء. الطلاب صحبوا أصدقاءهم من العرب والإنكليز، وعبد العال يحكي عن سلوك آخر. وليس هناك من شيء أمام نادر سوى بيت يستر العائلة. هل يبيعه أبوه ثم إنه لا يهمه كل هذا الهراء. لايؤمن بالعبث غير أنه لا يرغب أن يهرب من واقع مفروض عليه. وقّع ورقة الحزب فكان بعثيا وأصبح في تونتغهام. التقرير السياسي يقتفي أثره والاجتماعات تلاحقه، ويتابع هو بدوره اللشمانيا كلّ يوم، وسوف يعود ليخوض تجربة الحرب، خالها تطول فإذا هي ثلاث سنوات تمرّ وثمة كلّ شيء كماهو. عالم آخر سيلخصه لها ببضعة عبارات، والأفضل له أن يستوعب تجربة الجامعة. أمك ماتت خلال الحرب ووالدك بعدها بسنتين. إخوتك يانادر توزعوا. أختاك تزوجتا، هذه سنة الحياة، في حالات قد تطول تصبح الحياة استثناء والموت يحيط بك فتلمسه بقلبك وعينيك ويديك، وهو من جملة الاستثناءات، لا تشعر إلا به وحده.. وساعة تحل إجازته فيذهب إلى بيت أهله أيّ بيت كان . منزل إحدى أخواته أو إخوانه.. هناك يكتب لها.. يظن الآخرين موتى مثل الذين يتساقطون من حوله في الجبهة.. ، يشعر بوجوده الحقيقي وتعود أحاسيسه مفعمة بالحياة ساعة يكتب إليها كأنه يخرج من علبته التي دخل فيها دقائق ساعات أو أياما.. واثق تماما في تلك الحالة أنه لن يفنى مثل هؤلاء الذين يحيطونه.. يحيى في زمان آخر.. ينتظر من يطلقه.. مع ذلك يراوده إحساس بالخيبة حين يظن رسائله تضيع..

تتبعثر..

ماحوله يشع بالريبة..

وكل مايحيط به يشيع منه الشكّ والعبث..

كل هذا وأنت تستقبل الحصار بمنزلتك الجامعية. رتبة تفرض احترامها، في الوقت الذي طبعت فيه الحكومة الدنانير من ورق عاديّ كان راتبك خمسة دولارات. جوستينا بعد ممارسة البغاء ببضع سنين أصبحت تملك سيارة وتفكر بشراء بيت.

هل ضاعت رسائلك إليها؟

- لا تسافر؟ تسافر في مثل هذه الظروف.

يقول لها لا بد من العودة. من يدفع كفالة البعثة، وليس في ذهنه قط أن يكون أستاذا بخمسة دولارات. ولعله يضحك إذ يذكر لها أن أحد الأساتذة أخذ يعمل بعد الدوام سائق أجرة. إيه جوستينا أحد الطلاب جاءني بخمسة كيلوات باذنجان وكيلو لحم مقابل بعض العلامات أربع علامات. اللحم والخضار أرسلته إلى بيت أختي.. لن أخسر شيئا نحن نعيش ظروفا شاذة، كلّ يمكن أن يبدع وفق طريقته الخاصة.. أما الطالبات اللاتي يشبهن تماما في الشكل دلال فلي حساب معهن.

- إني اعترف لك!

- طيب حبيبي هذا العام لن تحضر عيد ميلاد أمي مارأيك أن نذهب إليها في عيد رأس السنة لأن أختي الصغرى ستقضي

الكرسمس ورأس السنة مع صديقها في أسبانيا!

أخيرا نطقت. إنه الحب: I like you انتهت بعد ثلاث سنوات. لابدّ من أن يمرَّ على المكان نفسه. الكونتسية وقصرها ويرى اللوحات. مرة واحدة في السنة تكفي لأن نرى الأشياء على حقيقتها أو نجدها أضافت حقائق أخرى لحقيقتها الأولى. الزمن نفسه يمكن أن يترك آثاره على الجماد، وكلّ مرة يستقلان الحافلة. يمشيان. يهرولان، ربما يريان الغابات تصغر، وبيوتا جديدة تنهض. ينسى أن هناك حربا، ويضيع الاتصال بينه والعائلة، I love you

I love you so

لكنهما هذه المرة استقلا القطار وغاب عن أعينهما قصر الكونتيسة. كانت السيدة "جوزي" تنتظرهما في الصالة وقد بدت متأنقة في ملابسها وتسريحة شعرها. كلّ شيء يوحي بهدوء وسكينة بنفجران عند منتصف الليل. الكراسي اختفت، ولم يبق منها إلا ثلاثة، والمنضدة المستطيلة التي ارتقى عليها ديك رومي وزجاجة نبيذ. كانت الشموع تضفي مسحة من الجمال والهيبة على المكان. جلال يكاد يكون أبديا يتجدد كل عام. احتفال خال من أيّ افتعال. كأنه شعر بهدوء عنيف لغياب الآخرين. حتى إلف نفسه، إلف الثقيل بأنفته وتعاليه بات يضفي على الحضور السنوي نكهة خاصة. أما سنينا فمازال يتردد بشأنها.. لا يحبّ أن يطبع على خدها الذابل قطعة لشمانيا ويعرض عن ذكرها. راحت جوستينا تتحرك مثل النحلة وبين

فترة وأخرى تحط جنبه وتقبله. تجرأ أن يشدها من يدها ويطبع على يدها قبلة. راودته جرأة غير معهودة فالتفت إلى الأم:

– إن لم يكن هناك مانع "وضع إصبعه على أرنبة أنفه، وغطى بقية سؤاله بابتسامة" هل يمكن أن تخبريني أيا من أزواجك أحب إليك؟!

فاتسعت بسمتها وقالت بعد صمت قصير:

– دعني من ذلك لن أخبر أحدا لئلا أعكر مزاج أي من أبنائي لكن أخبرني هل نويت حقا الرحيل في مثل هذه الظروف؟

تسأله عن شيء يبدو ثابتا، السفر والعنف هناك بل الدم. هل يكون جبانا فيفرّ من الموت المتربص أم يبيع أبوه بيت العائلة كي يسدّد مبلغ الكفالة؟. يرنّ الهاتف، تغادر وتنطق اسما ما.. لا يهمه سواء أكان إلْف أو أياً من أبنائها أو أزواجها:

– لا بدّ من ذلك.

– أيّة حرب هذه "وأردفت بحماس" حربنا في الفوكلاند دامت ثلاثة أشهر.

وعقبت جوستينا:

– إنه مصر في حين يمكن أن يجد بيسرٍ عملا هنا!

– ياسيدتي حتى لو لم تكن هناك حرب فأنا محكوم بكفالة مادامت الحكومة أرسلتنا هنا فقد اشترطت علينا الكفالة وألا يتزوج أي منا من أجنبية!

فحملقت فيه ثواني وهزت رأسها:

– لكن هذا قانون عنصري!

قالتها وهي تشير إلى بدء موعد العشاء، أما الخارج فقد اندلع في أقل من بضع ساعات فقط، بصخب جديد يعلن عن انصرام سنة جديدة وحلول عام آخر تمثلت بقاياه في جثة ديك رومي ممزقة على الطاولة، وألعاب نارية تتصاعد في السماء تشكل دوائر متباينة وتخبو. وقف الإثنان حول السيدة "جوزي" وطبع كل منهما قبلة على خديها، وتبادلا الأنخاب معها:

Happy new year

يرنّ الهاتف مرة أخرى، تعلن الأم أنها "لويزا" من أسبانيا، سنة سعيدة، وتطل مكالمة أخرى وأخرى، دقيقة تفصل بين عامين وتحتشد بمكالمات من مانشستر وليدز وأماكن متناثرة بين العامين القديم والجديد في حين استمر الصخب والضجة والغناء راحا يدوران حول المنضدة ثم يغيبان في قبلة طويلة فيغطي بعدها المدينة كلها صمت طويل.

١٠

لكن بأية من تلك السنوات يطل عليها؟

بل من أيما سنة يهبط في هذه المدينة التي تتشح أمامه بالضباب..

الحرب أم الحصار، هذه المرة أتى إلى نوتنغهام بغير عينة من اللشمانيا ولا يحصر أيّ كائن خفيّ بين يديه، لعله يبدأ من حيث يشاء فبعد أن رآى مارآى من قتل وجثث لم تمحها من ذاكرته الأيام. الموت نفسه يخدع بطرقٍ شتّى لا مجال لحصرها، سيحدثها عن جنديّ اقتحم الساتر الترابيّ بعربته المدرعة. مات وبقيت قدمه متصلبة على دواسة الوقود إلى أن اصطدمت العجلة بالساتر فانقلبت. ميت يقود عجلة.. بعض الأمور تبدو غريبة لنفهمها متأخرين، ومن حقّ الآخرين ألا يصدقوها إلا حين يتقمصون الحرب دقيقة بدقيقة. ليست جوستينا وحدها تتهمه بالانفصام أو الكذب فبعض مارآه وأبصره لا يقدر أن يذيعه ربما إلا لها . صور ناصعة لم تتعفّن على الرغم من مرور سنوات طويلة.. كان يأمل أنه لو قُتِلَ هناك فإنّ هنا شيئا باقٍ منه في نوتنغهام.

حلم ذات يوم: إن عاش فسيبحث يوما ما عن بقاياه التي انفصلت عنه من دون حرب!

كان يمكن أن يختصر ذلك بكلمة واحدة.. سأبقى وليكن مايكون. هناك من تظاهر بحماس يلعن الحرب، ويشتم إيران، ويوم حانت ساعة الرحيل ضرب عرض الحائط بالكفالة وأهله، وقد شعر بالارتياح يوم قالت له ستذهب معه إلى لندن، يمكن أن تعدها إجازة عمل، ساعة أو ساعتين. تستقل معه الحافلة، يزهو بها أمام طلاب البعثة. رائعة أنيقة ذات قوام. تمسك ذراعه. تبتسم بوجه من يطالعهما. أسف لغياب عبد العال الذي التزم بالحضور أمام أستاذه المشرف وهو على ثقة أنه لو رآى جوستينا لحدث عنها حميدة بللوز. اختارا المقعد خلف السائق. كانت تبدو بسلوك راق مثل أية طالبة في الجامعة تتحدر من عائلة عريقة. صديقة لن تنتهي العلاقة معها بالزواج وفق شرط اختاره على مضض. يدها بيده، تهتف مع الآخرين، يعلو صوتها:لا للحرب، stop the war، no to the war متطوّعون ضيوف، عرب وأجانب، أمّا الأكثر خوفا فهم الطلاب الذين شارفت سنينهم في بريطانيا على النهاية. ترآى الحشد لعينيه أشبه بعائلة السيدة"جوزي" الكبيرة العدد حين يلتقي أفرادها في عيد ميلاد الأم وكأن لا علاقة تربطهم ببعضهم سوى أغنية يرددونها جميعهم ثم ينتظرونها في عام آخر. عيد ميلاد سعيد. إيران لتقف الحرب، لكن لو انتهت لما اجتمعوا، ولما كان هناك من داع للسفر إلى لندن. كانت تقبض على ذراعه وتلوّح متحمسة باليد الأخرى، غابت عن عينيه اللافتات، ولوحات الأعلان على الحافلات وفوق الواجهات. ice cream لتقف

الحرب war should be stop.. سارا في شوارع لاتعنيه وخطرت أمام عينيه عناوين مثيرة تجاهلها، ومثلما شغل فمه وعينيه بالهتاف والنظر إلى اللافتات، تذكر اللشمانيا. انتقل بصره إلى الوجوه. دار رأسه يمينا وشمالا وتعمد أن يلتفت مرات إلى الخلف، لا وجه يلوح عليه أيّ تشوّه. وجوه متباينة. لم ير اللشمانيا تلك اللحظة. أين اختفت من الوجوه؟ العابرون على الرصيف، ومن توقفوا يتطلعون في التظاهرة لا آثار في وجوههم، وليس هناك من المتظاهرين من ينظر إليهما بفضول فيحسّ من نظراته أنه يعرف حقيقة جوستينا، وتساءل هل يُعقَل أنّ أحداً من طلاب البعثة يعرفها؟ ربما زار طالب ما بيتَ دعارةٍ آخرَ غير الذي تقيم فيه. فكرة سخيفة تلاعبت برأسه سرعان ماطردها بعيدا وظل يطاردها. ماذا لو بدأ بقبلة طويلة. ضحك في سرّه من سخفٍ يدَّعيه ولا يمارسه.

– تعجبك لندن؟

كان هناك ثمّة حاجز بينه وبين تلك المدينة العجوز الشابة، حاجز جعله يقرف يوم زار البكاديللي فانسل يهبط درجات صرّت تحت قدميه مثل حشرة تستقبل الغروب بأزيز كسول ثم سرعان ما ارتدّ يهرب من ضوء خافت متآكل، وصوت يلاحقه أن يعود مرّة أخرى.

– التايمز ومتحف الشمع وأجوار رووود.

ومثلما تأتيه الأفكار أحيانا متأخرة، فاجأته قبلتها له حالما انفضت التظاهرة، القبلة التي هم بها وطاردها حتى اختفت.. وبدأ الرفاق يصعدون في الحافلات التي تكدست أمام الهايد بارك.. هي المرة

الأولى التي يصحبها، وجودها معه يثبت حضوره للرفيق، ومشيتها جنبه تعلن عن وجوده أكثر مما لو جاء وحده، فنفث عن صدره عبئا ثقيلا، وفاجأه قولها ثانية فهب من سرحانه:

– أترغب أن تتجول في لندن بضع ساعات؟

ارتسمت على وجهه علامة ما:

مازال يبحث في الوجوه عن تلك الرقعة التي يحاربها كلّ يوم. لا يحارب وهما بل حقيقة.. يمكن أن يعتذر. يجد حجة ما، النهوض مبكرا غدا. حشرة صغيرة. . جرثومة.. فطر لايبين يجعلك تقطع مسافات طويلة كي تحاصره داخل علبة صغيرة. مال طائل يُصْرَف.. أستاذ مشرف يطالبك ببحث. كم أنت عظيمة وحقيرة أيتها الحشرة.. الرفيق مسؤول المنظمة لا يهمه أن تغيب يوما من كل شهر فتشارك في مظاهرة لندن، لتنفضّ التظاهرة الطويلة العريضة بقبلة. من المعقول أن تقضي ساعات في أماكن لا تعنى بالسياسة والحرب:

– لِمْ لا.

ترددت وبعد صمت قصير:

– لن تتكلف كثيرا دع بطاقة العودة على حسابي!

قال شبه معترض:

– معي بطاقة طالب وسأدفع نصف الكلفة لا تفكري بذلك!

فضغطت على يده وقالت:

– تعجبني تقطيبتك وذلك القتام على وجهك!

وتلاشت من عينيه نظرة حائرة وهما يغادران الهايد بارك. تحاشيا الحديث عن الحرب والرحيل، صحبته إلى ساعة بيغبن، تطلع فيها ببرود. لاشيء يجذبه في تلك الدائرة التي تؤطر الزمن، ولا البرج الذي يحملها. عادي.. المشهد عادي تماما.. وجلسا على مدرجات النهر عند مقدمة جسر لندن. هل يهرب من الحرب عندها أم يهرول منها إلى الحرب. كان الجو يميل إلى البرودة والغيوم التي على الرغم من كثافتها لا توحي بمطر مازالت تلقي بظلالها على هواجسه، ولعلها تلتمّ وتنهمر مثلما كان عليه المشهد يوم زارا منزل الأرملة السوداء، فيا ترى بعد عام أم أشهر، أين يكون:

- هل يعجبك المكان؟

قالها محاولا أن يتحرر من أية فكرة تعكّره:

- طبيعتي أحب الهدوء مع ذلك أحن إلى الصخب. أحتاجه بضعة أيام في العام.

وغادرا مدرجات الجسر، فتابعا سيرهما إلى الجانب الآخر، وانحرفا إلى اليمين حيث المرفأ، فأشرفا على زورق ينتظر السائحين. كأنّ خطاهما كانت تقودهما إلى حيث لا يدريان، عالم واسع صاخب مفتوح أمامهما.. مشيا طويلا، واستقلا قطار الأنفاق.. صعدا سلّم النفق إلى أجوار رود حيث تناولا طعامها في أحد المطاعم الشرقية. طلبا كبة وكبابا وحساء عدس.. ثرثرا عن نهر التايمز، ومتحف الشمع، وساعة بيغبن. تحدثا عن أشياء ومعالم بعيدة.. عن مشاكل

وأزمات يحياها العالم، جعلته جوستينا ينسى اللشمانيا والمختبر، والمظاهرة التي قادت خطاهما إلى لندن، تحدثت خطواتهما على الرصيف أكثر مما تكلما. قبّلها مرات من دون تردد، كان يحسّ أنه هرب معها إلى مكان آمن. إلى نفسه.. خرج من المختبر وبيت الطلبة فهبط من الطائرة إليها جنب النهر من دون أن يقف في أيّ مكان آخر.. لا أحد يعرفها هنا في هذا المكان الصاخب الواسع:

– هذا اليوم لا يكفي لزيارة معالم مدينة لندن.. المرة القادمة نقصد متحف الشمع أوحديقة الحيوان!

– أجل أجل.

حلم جميل يعيشه بعيدا عن المنغصات، ويأبى المختبر إلا أن يعيده إليه. ينسى فيتطلع في الوجوه لعله يجد علامة بوجه أيّ عابر يمرّ بالقرب منه:

– مارأيك أن تزوري الجامعة فأريك المختبر وذلك الكائن المخفي الذي جئت إلى نوتنغهام من أجله!

عظيم! أوكي!

أما في اليوم التالي فقد استيقظت مبكرة قبل الساعة التاسعة. جهزت الفطور، وعندما داعبت خده وقرصت أذنه قرصة خفيفة تدعوه لأن يستيقظ لكنه ادعى أن وعكة ما اعترته من أرهاق أمس، وسيعتذر اليوم للجامعة عن الحضور، ربما ادعى المرض لكنه أراد أن يبقى في الفراش كما لو أنه يغمض عينيه على حلم جميل يخشى أن يهرب منه!

١١

هل يعد نفسه خاسرا حين جلب ذات يوم جرثومة إلى نوتنغهام وعاد من دونها في الوقت نفسه ترك بعضا منه في إحد المختبرات فَهُرِعَ بعد سنين يبحث عنه.

أنت محبوس

أو

أنت حبست نفسك باختيارك فكنت طليقا في مكان آخر.

ليست مصادفة مفتعلة..

ماظنه عبثا أصبح حقيقةً أغنته عن الحاضر نفسه وما عاشه من صخبٍ ولهو، ولعل جوستينا شجعته من دون أن تدري. لم ير الدموع بعينيها، ولم يعرف أية مسحة حزن إذ يغادر إلى حيث لا عودة. كانت تبدو متماسكة سوى لمحة من الجدّ لاحت على وجهها. أشبه بالحزن قطعا. أصبح بقاؤه في نوتنغهام وعودته ممكنة جدا. سيكون هناك بعيدا وهنا أيضا. المستحيل تلاشى.. يمكن أن يحقق ذاته في مكان واحد بوقت واحد أو بأكثر من زمن ومكان. نحن نعيش عصر العلم والخيال، وقد جمع بينهما حين حشر نفسه في قارورة وهو طليق.. سنين وهو يحاصر اللشمانيا، يحجز الخفاء ويراقبه، فهل يعجز أن يمنح نفسه سعةً ليكون في أي مكان:

– سآتي بعد نصف ساعة.

ليحاصر بعضاً منه حتى يعيش سنوات أخرى!

استقل الحافلة إلى المشفى الملكي، أيمكن أن تجده جوستينا ساعة تشاء. في أيّة لحظة. خاتم سليمان بيدها. شبيك لبيك، تعيد إليه الحياة من جديد، فتجده أمامها وإن عاد إليها بشكل آخر. كانت ترى أنها هي التي صنعته من خلال عالم النساء. شخص بريء لا يعرف عالم المرأة.. جعلته يقدر فحولته، وحاول أن يجرب مع غيرها فأخفق. عافت نفسه البيكادللي وقرفه، هذه ليست دلال التي صفعت أستاذا قديرا فأنهت كيانه، محقته، أجبرته يهرب من الجامعة، ولا فتاة طريقٍ تبصقُ على أصابعها كي ترطب مكانا في جسدها. انفرد بها في المختبر قدّمها لمن يعرفهم بصفتها صديقته. انحنت على عدسة المجهر وراقبت ذبابة ذات شعر أصفر مُحْمَر. ورأت المياه والرطوبة يحاصران الكائن الخفي. بحر متلاطم لاقرار له. عالم غريب يثير دهشتها. ابتسامتها تتسع فتتألق وسط اجواء تحيطها روائح المطهرات. الذبابة وإن تبدو بصورة وحش ذي شعر محمر إلا أنها لا تكاد تخلو من مسحة من الجمال لكنها لا تصفعه، ولوكانت في مكان آخر لقبلته، أما النساء اللائي تهافت عليهن بعد أن رجع من أعوام البعثة فيظن أنهن لون آخر. لايبعثن القرف مثل سيدة البيكادللي. مرحلة جديدة فرضتها عليه حفنة دنانير ليست بذات قيمة تعبّيء الحكومة بها جيبه كلَّ شهر، وخضار ولحم ودجاج يستلمه من طلاب متملقين

فيرسله إلى أخواته وإخوانه،.. كل شيء عزيزتي جوستينا تغير ولو عاد الزمن ثانية لابتعت من دجاج التجارب أكثر من قفص أرسلته إلى مستخدمي أنجم ولا غثيان يراودني.

لا قرف!

الآن المسألة لاتثير الاشمئزاز.

مادمتَ ترى رؤوسا تطير، وأشلاء لبني آدم تتبعثر، وتبصر من يكرع دما من صدر جريح ينزف.. فيمكنه بعد كل ذلك أن يترك بقاياه في أي مكان أما هنا فالحالة تبدو أفضل. شيء ما يصبح امتدادا له. وفي باله احتمال آخر، في الجامعة أخبروه أن هناك تجارب ممتازة لكنَّ المؤسسات الخاصة هي الأكثر خبرة، بعد ساعة كان يجتاز طريق داربي في مركز المدينة إلى مختبر الخصوبة، تجاوز المدخل إلى ممرٍّ على اليمين، أمور محظورة كثيرة وقوانين جديدة. فحوصات ولائحة شروط أخلاقية. أنت لايحق لك أن تسأل عن سيدة تحبل منك لكنك مادمت ذكرت صديقتك جوستينا.. نعم my girl friend حسنا القانون لا يمنعك تستطيع في أي وقت أن تطلب التفاصيل.. معلومات عامة.. القانون، والأخلاق. مسألة تبدو سهلة وصعبة: خطان متوازيان يمكن أن يلتقيا في دائرة مجهولة. كان يحضر مرتين في الأسبوع. حسن جدا أنه انتبه إلى عامل الوقت، وكانت عنده بقايا نقود تكفي للمغامرة الجديدة. إن لم تنته الحرب سيكون هناك في الجبهة وهنا في بريطانيا.

بكتريا تنسخ نفسها.

ينشطر شطرين!

وربما أكثر. ريتابة السكون من حوله تلاشت. في المرحلة الأولى بعد الفحوصات والتحاليل استلم أنبوبة، قيل له ستكون في الحمام ولو جئت متطوعا من غير قصد لدفعنا لك ثلاثين جنيها أجرة الحافلة! دخل من دون تردد، الممرضة الحسناء ذات اللكنة الإنكليزية البحتة قالت له ستسمع موسيقى، وتحيطك أضواء متباينة الألوان.. أنوار حساسة تساعدك على الخيال، فتخيل ماشئت، ولم يتخيل نفسه مع جوستينا قط، كاد يقرف إذ خطرت امرأة البيكادللي واللعاب يلمع على أطراف أصابعها، أما آجر الحمام اللماع المستطيل والأرضية المفروشة بغطاء مرمري وثمة الرف الذي أطلت منه أوعية العطور والصابون، فذلك ماطرد عنه القرف. في الخارج من يعرف أنه الآن يباشر انفصاله عنه.. لكن لايهم. خمس مرات.. خمس وقائع.. حقب.. ملاحم انفصام لسائل يتدفق منه إلى فوهة قنينة.. بدأ الأولى مع دلال.. البانيو. نعم دلال ممتلئة الجسد عريضة الوجه ساقاها لامعتان فخذاها ملفوفتان جذبها إلى المختبر قبل أن يراها في مطار ما عجوزا مترهلة تسحب حقيبة السفر. بعض الطلاب أحبوا التقرب إليها. كانت مثل الفرس الصعبة انقادت له مختارة بجسدها الأبيض الممتلئ الريان، وطولها الفارع، في البانيو السحري لايخشاها ولا يخاف أن تنقلب عليه.

لا يعنيه أين سافرت وهل ترجع أم لا؟!

بدت أليفة مثل جوستينا التي انحنت على عدسة المجهر وهي تقول له بابتسامة واسعة:كم هي مقرفة هذه الذبابة وهي طليقة أما هنا فتكاد لا تخلو من جمال!

.. اللعبة انكشفت،

تأوه وتأوهت.. أنتَ لستَ في ترعة انحسر عنها المدّ. واقفٌ رجلاك في الرطوبة وخيالك يسرح، مع ارتفاع الموسيقى وآهات النغم انقلبت فوقه ثم انقلبت على يديها وركبتيها تأوه معها. مارس مختلف الأوضاع، وكانت الزجاجة بين يديه تمدّ عنقها وتفتح فمها المدوّر لسائله اللزج!

قارورة الحياة الجديدة..

المرّة تلو المرّة يتخيل في البانيو الترعة الصغيرة فتاة لا يكررها.. يملأ جرتها، قضى وقتا ممتعا على وقع الموسيقى مع طالبة يجهل اسمها تسبقه بعامين في قسم الرياضيات، هادئة ممتلئة.. لاتعجبه الفتيات النحيفات كلّهن شرقيات عذراوات.. أبصر دم البكارة على منديل أبيض وسمع صراخ اللذة يختلط بالألم وكاد يخصص الجلسة الأخيرة لجوستينا إلا أنه استثنى في آخر لحظة واختلطت بخياله أكثر من فتاة. ليربح امرأة يجهل جسدها. ثم وصل الى مرفأه الاخير عندئذٍ توقفت الموسيقى.

ران السكون على الحمام.

كان وحده مع الوعاء.

ابتسم للمرضة الشقراء التي استلمت وعاءه، وخطت برشاقةٍ نحو

الممر خارج الغرفة، ها هو يتخلص من حملٍ ثقيل. كان يشعر أنه انتشر في العالم، يكاد يطير من الفرح.. انشطر، وتناسخ. بعض البكتريا تنقسم. تعيش إلى الأبد.. لا تموت.. لا تندحر قطّ كالشمانيا. سيبقى أربع سنين أخرى، سوف يظل محبوسا في زجاجة تحت صقيع قاس عندئذٍ تكون حياته الجديدة بيد جوستينا أو امرأة أخرى لا يعرفها.. جوستينا التي يعرفها ويقرؤ خرائط جسدها يمكن أن يتتبع بذرته فيها أما التي لايعرفها والتي سوف تسأل عن بعضه ولا تعرفه، فالقانون والأخلاق لا يسمحان له أن يعرفها، هناك أيدٍ ستأتي لتخرجه من الوعاء الصغير من بينها يدا جوستينا.

مغامرة هنا وهو محبوس ومغامرة هناك وهو طليق!

شبه متفائل أو متأكد!

وخرج من مكمنه الموقت المتلفع بعالم الموسيقى ليدفع إلى موظفة أخرى قائمة الحساب، ثم غادر مركز الفحولة يراوده زهو وبعض الإرهاق، بعض منه يظل محفورا في الزمن أربع سنوات مالم تأت إليه جوستينا لتنقذه. مارد محبوس في قارورة، قد تأتي أخريات ليطلقنه، شخص يحارب في جبهة ملتهبة وهو يكمن بمكان لا تحرره منه إلا النساء. وحين وصل السكن الجامعي وجد، عند واجهة المدخل، قصاصة ورق من عبد العال محشورةً في الصندوق الخاص به يحثه فيها أن يقدم إليه على عجل، فظنه يروم السفر معه إلى بغداد، فدخل غرفته يرتاح ساعة أو أقل ثم يغادر!

١٢

وهاهو هو يبدأ من جديد.

يقف متأملا..

المطعم القديم اتسع وانفتح على محل آخر فاندمج الاثنان ليصبحا معرض مفروشات. أطل من الزجاج فوقع بصره وسط الداخل الشاحب على شراشف وأسرة ومقاعد، وخطر في ذهنه أن البيت الكبير تغيَّر. أكثر من ثلاثين عاما لكن العائد الى بريطانيا بعد سنين يجدها كما هي وإن تبدَّلت. واصل سيره في الطريق الضيق. واستغرقته الشوارع الفرعية ثم انحرف إلى اليسار. انحدر على الرصيف المثقل بأشجار الكستناء والزيزفزن. واجتاز بيوتا انمحت ملامحها من ذاكرته. هناك.. عند نهاية الطريق حيث الشارع العام.. وقف والدهشة تعقد لسانه.

الشارع ساكن إلا من مرور السيارات والعابرين. لم ير أية منهن تقف على الرصيف بلباس قصير أو سروال ضيق ذي نكهة خاصة تزينه سلسلة معدنية تتأرجح من الحزام.

لا واحدة هناك!

البيت تغير تماما..

الوحيد دون سائر البيوت اختفت حديقته الأمامية.. ترآى له أنه أشبه بعمارة صغيرة. بدا بواجهة أخرى، وعلى حافة الباب يقرؤ لافتة

تشير إلى أن البناية مركز للصمّ. بسط بصره في الشارع من واجهة اليمين كأنه يلاحق بعينيه نهرا إلى منبعه. هل مايزال مرتعا للبغاء مثلما عرفه قبل أكثر من ثلاثين عاما؟إنه لم يأت ليطرق الباب فيأمل أن تطل عليه جوستينا. ذلك مالم يخطر على باله. وإن شطح به الخيال بعيدا فإنه يجد واحدة أخرى تخرج إليه تظنّه زبونا غريب الشكل يسألها إن كانت تعرف ساكنة قبلها بعمر أمها تحمل اسم جوستينا. فكرة سخيفة. غير أنه الفضول الذي يدفعه إلى أن يرى محلا قديما عمل فيه للمرة الأولى في حياته، وبيتا سكنته امرأة كانت هي الأولى التي شفته من حرمان طويل، ستظلّ جميلة وإن دخلت العقد السادس من عمرها.. أما اللائي جئن بعدها من زمن الحرب والحصار فتكاد أية منهن لا تبقى معه سوى بضعة أسابيع. كانت جوستينا هي الثابت الوحيد في حياته وسط عالم متغير مثل رمال متحركة دائمة الهيجان تبتلع كل من يدفعه حظه العاثر للوقوع فيها. ساعات الحرب تذكّرها، وكم حسد عبد الحال على نعمة فراره، لو أدرك وهو في بريطانيا بشاعة الرؤيا لما عاد، ليبيعْ والده البيت ويسدد ثمن كفالته، فلتبق عائلته من دون مأوى، ذلك أهون من مشهد موت يطبق مثل حبل على عنقه في أيّة لحظة، وهاهو يتذكر إلحاحها عليه أن لا يغادر. يقول مبتسما:

- سيظلّ بعض مني هنا معك!

- لا أفهم ماتعنيه.

يتأمل قليلا ويتريث في الجواب. أكثر من اربعمائة جنيه دفعها غير نادم. قيل له قبل أن يمارس الفحص سنمنحك مبلغا زهيدا مقابل حيامنك. اعتبره أجرة الحافلة. هذا لايتنافى مع القانون والأخلاق إما إذا رغبت في التجميد فلن تبقى الحيامن أكثر من أربع سنوات عندئذٍ عليك أن تدفع مائة وعشر جنيهات عن كلّ سنة.. المهم ان يحقق نفسه، فقد يُقْتَل في الحرب وهو مطمئن إلى أنه مازال يعيش في مكانٍ آخر. ولا يظن أن له هاجسا في الزواج إذا ما نجى:

- ألا تراودك رغبة في أن تصبحي أما؟

فمطت شفتيها اهتماما وقالت:

- بالتأكيد لكن ليس الآن.

فتنفس الصعداء بارتياح وقال:

- ستجدين بعضا مني مجمدا فقط احذري أن تتجاهلي لا يغلبنّك الوقت لديك أربع سنوات فقط!

منحها أربع سنوات لتعيده بصيغة أخرى إلى الحياة سواء كان حيا أم ميتا. إنه يغامر على الحياة والموت معا.. ويفاجؤها أنه دفع للعام الواحد مائة وعشرة جنيهات. كان يحلم أن يشتري أدوات لمختبر واسع، لقد تغيّر كلّ شيء. التفصيلات حذفتها أحداث جانبية أكبر من إرادته ولا خلاص لديه من قدر يلاحقه بقسوته:

- لا تشغل بالك مهما يكن سأقدم على الأمر!

احتضنته وقطعت عليه صمته:

أعدك بذلك لا لأنك حشرتني في زاوية ضيقة لكن لا أحب أن أراك محبوسا في علبة صغيره!

وحين غادرها صامتا من دون أن يخبرها بيوم الرحيل كان يعول على الكتابة إليها. جندي في الجبهة يزور أهله مرة كل شهرين وربما أطول. تلك الأيام جللتها صورة العنف وحدها. ثلاث سنوات عنف. لم تظهر فيها بعد صورة جريئة لطالبة تزوره في عشّ صغير هادىء.. لاسكر ولا شقة ولا عيش. رائحة البارود.. الصخب.. الهدير.. العنف عجز عن أن يمحو صورتها من ذاكرته. جسدها عطرها. الخدر الذي يشعر به حين يتنفس وأنفه بين نهديها. عبق. نشوة. عطر لا حدود له:

– ما هذا؟

– كلامور!

– أي عطر تحب؟

جرب كل العطور ولم يرسخ في ذهنه إلا الموسى والتمساح فكانت تقدم له في اليوم السابع من أبريل قنينة لا كوستا وتغرد معه عيد ميلاد سعيد، ومن حسن حظه أنه ولد في اليوم السابع من هذا الشهر، ولو حدثت ولادته في اليوم الأول لتحول إلى أكذوبة كبيرة تذيعها الصحف ووسائل الإعلام ويتندر بها الناس في الشوارع. أنت وُلِدتَ حين جرفتك كذبة كبيرة. كان من الممكن أن تموت قبل هذا التاريخ بأيّ زمن كان. كل عام وأنت بخير حبيبي. ولم يكن ليجرؤ أن يكتب لها كل شيء وفق هواه. الجندي العائد من الجبهة يظن أنه لن

يضمن نفسه في الإجازة القادمة، مع اختلاف كبير فيما يراه:الحرب حين تلسع الوجوه والأجساد تشوهها لكنّ اللشمانيا مثل العملة النقدية المعدنية ذات وجهين: تشوّه وجوها، وتبدو جميلة مع أخرى. لا يكتب لها عن الأجنة والتجميد خشية من أن يؤّل كلامه باتجاه آخر. يتحدث عن عطر الكلامور وعيد ميلادها والبارود يدخّن من حوله، فهل وصلت رسائله إليها. هل كتبت إليه؟ سيعرف أمورا كثيرة في غد وقد ساوره شك ما في أنها نسيته. عدته لحظة عابرة مرت. مثل أي حدث صغير أو كبير. أن تصبح عبئا أفضل بكثير من أن تكون أكذوبة. جوستينا لم تكذب عليه.

غدا يدرك الأمور كلها. الحقائق تصبح ماثلة بين يديه. فلعلّها أبقته في العلبة ولربما جاءت أخرى فأطلقت بعضه فلا يحق له أن يعرف من تكون!

ربما أكثر من واحدة!

ليكن موزعا.. لايهم.. الذي يعنيه فقط أن الشارع نفسه أصبح تحت قدميه بعد ثلاثة عقود!

لم يستقل الترام الذي يبعد بضعة أمتار عن البيت القديم. اقترب من محطة "المدرسة العالية"، وتلفت. انتقل إلى الرصيف الآخر.

الشارع مقفر..

ميت. لا حياة فيه. وأمامه تلمع أضواء لمحل sains burry express لكن واجهة المحل لاتضفي على طريق الترام أو طريقه

القديم أيّة رشاقة. يبدو أن كثيرا من الأمور تترهل إذ نلتفت إليها بعد حين، وفي باله أن يدخل المحل فيسأل بطريقة ما عن سرّ الشارع وصمته الغريب. أربع أو خمس على الرصيف كنّ بملابسهن المثيرة وتسريحاتهنّ الغريبة يضفين على الرصيفين شيئا من البهجة. دخل المحلّ وخطا بين الممرات المحاطة بالأرفف والسلع ثم وقع بصره على فتاة خلف المحصلة وعامل يحمل عارضة لواجهة الخبز. عماذا يسأل؟ بغايا اختفين؟ وكيف يبدأ؟ أيقول إن الشارع كان مزهوّا بهنّ؟ابتسم للعاملة ابتسامة باهتة وخطا نحو الباب الخارجي، عاد إلى الرصيف. كان هناك عجوز في السبعين من عمره . حياه تحية المساء وانحنى وهو يقول:

– قبل ثلاثين عاما وزعت البتزا والطعام في هذا الشارع. Delivery ياسيدي كنت أراهن "واتسعت ابتسامته"يقفن يدعين الزبائن، على فكرة أحيانا تكون التوصيلة لإحداهن، كريمات في البخشيش أما الآن فلا أرى ماعهدته قبل ثلاثة عقود من أثر.

تأمل العجوز قليلا وأجاب ببطء كأنه يلتقط الكلمات أويستجمع شظايا ماضٍ قريب:

– قبل خمس سنوات غادرن الشارع. إذن كنت تعمل في التوصيلة؟

وقبل أن تتوالى الأسئلة التي نمّت عنها عينا العجوز العابر استغرق المكان صرير عجلات ترام صاعد إلى "هوكنال" في الوقت

نفسه كان هناك آخر يهبط من فورست فيلد، فقال كمن يتخلص من حمل لم يعد بحاجة إليه:

أظنك تستقل الترام القادم هاهي اللوحة تشير إلى دقيقة باقية من الوقت one minte left، أما أنا فسأهبط ماشيا لأنني أرى أشياء لم أكن رأيتها من قبل، ومثلما في المرات السابقة بدا الطريق صديقه هذه المرة. يوم عاش الشارع بزهوه، كان يفضل إن يعود ماشيا إلى البيت الجامعي، فيوفر بعض النقود. تتبعَ أثر الترام، ولاحقته السكة المغروزة كدبوس منتصف الدرب، وبين حين وآخر يطل عليه من خلفه أو أمامه شبح الترام كأنه يسخر منه. يجتازه مقبلا أو عابرا مثل غراب يأتيك من خلف وأمام. كان يلهث لكنه أصر على المشي. وعندما وصل مركز المدينة ازداد لهاثه. وقف في الباحة الواسعة، وجلس على الدكة أسفل أحد الأسدين أمام مبنى البلدية، وحين استعاد أنفاسه نهض ثانية، فاستقلّ الترام حيث هبط إلى القسم الجامعي.. فاستسلم لنوم عميق..

وفي الصباح استقبل يومه على مضض بعمل روتيني زار المختبر الذي عرفه قبل عقود، واطلع من مستقبليه على أحدث ماتوصل إليه القسم، وشعر حين انتهت الساعات الأولى أنه نفض حملا ثقيلا عن صدره، فقد تشتت ذهنه ولا احتمال إلا أن يزور مركز الذكورة في وسط المدينة. استقبلته موظفة شابة بابتسامة واسعة وأبدت اهتماما لما يقوله. أنصتت لحديث جرى قبل أكثر من ثلاثة عقود. كان يسألها

عن رقم مازال يحتفظ به ويريها وصولات قديمة.. امرأة تدعى جوستينا.. هل قدمت إلى هنا تبحث عن بعضه؟ أشارت إليه بلطف أن يتبعها إلى غرفة أخرى حيث قابله مكتب وجهاز حاسوب.. بقي ينتظر دقائق حتى فتح الباب بهدوء. استقبلته خبيرة ترتدي الصدرية البيضاء وتتأبط ملفا ذا غلاف أخضر وخطوط سوداء:

– مرحبا سيد نادر أنا الدكتورة إيملي المسؤولة عن ملفك!

– أظن أنني جمدت حيامن عندكم وفق الوصولات والرقم المطلوب قبل أكثر من ثلاثين عاما.

– لحظة من فضلك.

دفعه الفضول ألا يتوقف:

– أعرف القانون جيدا فأنا لا أسأل عن أية امرأة تبنت بعض حيامني لكن هناك سيدة تدعى جوستينا؟

تصفحت الملف، وانصرفت إلى الحاسوب، وقتها، تلك اللحظة، الحاسمة تراقصت حساباته الكثيرة. جوستينا فعلتها أم لم تأت. هناك مجهولة أخرى جاءت كي تتلقح.. تكسر الجليد من حوله فيشعر بالدفء.. كل شيء ممكن وكل شيء محال. لن يخسر شيئا، لاشيء إن لم تفعلها جوستينا سوى الإحباط والشعور بالمرارة. لكنه يود لو أنها فعلتها. لا يعرف لم تراوده مثل تلك الرغبة. وقطعت عليه تأملاته الدكتورة إيملي وهي تقول:

– سيد نادر يوم السابع من شهر أبريل عام ١٩٨٥ تلقحت منك

حسب تعهدك السيدة جوستينا... وقد تركت لنا معلومات عنها تسمح لك بمقابلتها واللقاء بالمولود!

تراقصت فراشات جميلة عبرت أمام عينيه حدائق تموج بالزهور، انهار القطب الشمالي عن جليده، وتعرى بالخضرة جنوب الأرض. وقاطعها بشوق يشف عن رغبة قديمة:

- ماذا كان جنس الجنين؟

- بنت سمتها أمها نادية!

فازداد فضوله. يا ترى هل بحثت عن اسم أم جاءت التسمية مصادفة؟وربما ناقض نفسه عن عمد كأن جوستينا فتحت شهيته على حمل ثان لسيدة أخرى. صورة جديدة له. انشطار آخر. كان يعرف الجواب سلفا رغم ذلك يجده يندفع لعله يحظى بكلمة ما:

- هل هناك سيدة أخرى جاءت تتلقّح مني "وأضاف" لا أسأل من هي لكن مجرد نعم أو لا؟

فطالعته بنظرات جادة ظنها تحذيرا:

- هذا موضوع آخر من المحال الحديث فيه!

إذن لم يمض عام حتى تلقحت جوستينا. كانت صادقة في مشاعرها معه ووعدها له، لا تهمّه بعد انشطاراته الأخرى حتى لو انقسم إلى مئات أو ملايين، ولم يلبث إلا لحظات في غرفة يرين عليها الصمت والبياض..

ثم..

تأبط الملف ذا الورقات الأربع وهبط إلى الشارع كأنه يضمّ تحت إبطه الدنيا كلها، فقد عثر على ذاته التي حبسها في قارورة ذات يوم.

١٣

نادية

الاسم العائلي: سعيد

١٩٨٦ نوتنغهام

تفصيل غير ذي أهمية:

مكان الولادة المشفى الملكي في نوتنغهام

الأب نادر سعيد

الأم جوستينا مكنز

١٩٥٦ ليستر

تفاصيل مهمة أخرى تعنيه:

السيدة جوستينا في الخامسة والعشرين صحيحة البدن. لا أمراض. الطول ١٧٠. فصيلة الدم.. الوظيفة طالبة في قسم علم النفس جامعة ترنت!

تفاصيل ثانوية:

رقم هاتف أرضي... وآخر نقال ملحق..

إذن تركت البغاء الذي تسميه عملا حرا أو تجارة، والتحقت بالجامعة بعد سنة. لابدّ أن تكون تخرجت ومارست التعليم. يظن أنها لما تزل حية، ونادية ماشكلها.. لونها. شعرها أسود أم ورثت شعر

أمها.. أيهما أقرب إليها في الملامح. مفاجأة متوقعة تسره وتدفعه إلى القلق. يتذكر أنها قالت له ستشتري بيتا هل فعلتها في نوتنغهام أم مدينة أخرى. أمنيته وهو وحيد الآن يتخبط في بحر من الأسئلة والهواجس أن يجد عبد العال، نوتنغهام تعني جوستينا أولا ثم عبد العال، وحميدة بللوز، يا سيد عبد العال يا صديقي العزيز سأدعو جوستينا إلى الإسلام كما ترغب الست حميدة. الحمد لله إنها امرأة نصرانية لا تخاف يوم الحساب مع ذلك أخشى أن أدعو أي رجل. في هذه الحالة سيفقد قضيبه حين يدخل دينناcircumcision ياسيدي أما إذا فكر أن يخرج فسيفقد رأسه. أنت تعرف جيدا لو لم تكن حميدة في المطبخ تحضر عصير الفرح لما تجرأ نادر على أن يطلق تلك النكتة السمجة. يقول لوكنت شجاعا قل ذلك أمامها. قل بصوت جهوري.. من يدخل ديننا يقطعون قضيبه ومن يخرج يُقطَع رأسه.. يتراجع مبتسما ويدعي أنه لا يريد أن يخرب بيت صديقه العزيز، وها هو يأمل أن يجد صديقه القديم كي يشعر بالراحة والأمان إن لم يكن رجع من دون رأس، فأين هي المصادفة التي تجعل اثنين يلتقيان بعد ركام من السنين؟. قد لا ينفعه عبد العال بشيء سوى أن يرى فيه سندا له وهو يبحث عن حقيقة أرادها ان تكون قبل أكثر من ثلاثة عقود. قد يعثر عليه أو لابدّ من أن يعثر. كانا في حركة متوازنة، إما أن تعيش الحرب ثم حين تنجو تغادرها فتجد أن لا شيء يستحق شيئا كما لو أن الفوضى أصل الأشياء، أو أن تعيش في الخارج ثم تعود مختارا

إلى الحرب وتنجو فلا تغادر فتجد أيضا ألا شيء يستحق شيئا سوى الفوضى. لا بدّ أن يلتقيه، فلعله يستعين به. كانا في حركتين متناقضتين، ذهاب وإياب، لديه إحساس أن حميدة بللوز بعد أن لاح العنف في الجزائر وظهرت حالات قطع الرؤوس والانتقام وغطى الدم الغابات والحقول وضعت يدها بيده وهربا إلى الخارج. عادا إلى نوتنغهام، أو قد تكون هي نفسها تطرفت وحملت فأسا فعاد زوجها وحده أو من دون رأس.

- كل شيء محتمل!

مثلما كان محبوسا في نوتنغهام طليقا في مكان آخر ربما يعيش عبد العال في الجزائر من دون رأس فيجده في الوقت نفسه برأس في نوتنغهام!لكنه بحاجة إليه حتى لو لم يفضِ بأدقّ التفاصيل.. لم يخطر في باله وقتها سوى أن يسافرا معا، وعندما وصل وجد كل شيء يكاد يكون على غير ما توقع. حميدة بللوز عنده بشكل آخر. ارتدت فستانا يغطي ساقيها. شعر رأسها الكثيف اختفى تحت حجاب يصل أعلى حبينها وينزل أسفل حنكها. مشهد جديد على نادر تماما، ولربما تباهى عبد العال في بعض الأحيان أنّ لديه الحرية المطلقة على جسدها ويستثني العذرية. قطع عليه ذهوله رفيقه مداعبا:

- مالك صعقت كلّ مافي الأمر أن حميدة تحجبت!

- مبارك لك!

والتفت إلى رفيقه ممازحا:

– إلهذا دعوتني على عجل!

– إسمع أمس ذهبنا أنا وحميده إلى المركز الإسلامي حيث تزوجنا!

– مبارك مبارك!

وردت حميده مزهوة:

– الله يبارك فيك ياخوي إن شاء الله يوم نراك عريسا هل تعرف يا نادر لك أجر عند الله إذا تزوجت تلك الإنكليزية وجعلتها تتحجب يكفي الإنسان حياة الحرام وليس هناك أحسن من الحلال!

– كل شيء ياست بأوانه والله ظننت أنك دعوتني لتتحدث معي بشأن موعد السفر!

– بالمناسبة لا تعدّه تطفلا هل صديقتك طالبة؟

– أنهت الثانوية قبل سنتين وفي نيتها أن تسجل في الجامعة أما الرياضيات أو علم النفس لا أدري!

– أنا سأسافر غدا إلى الجزائر وستبقى حميدة هذا العام حتى تكمل دراستها!

– يعني لن تسافري هذه العطلة!

قالت ممازحة:

– سأبعثه بالبريد قبلي!وأردفت" الدراسة صعبة وأحتاج أن أبذل جهدا هذا العام!

– هل فكرت جيدا بما سيحدث لأهلك!

– الكفالة أجلك الله هي وحذائي ولن يقولوا هرب ثلاث عطل تطوعت فيها. عشت الحرب ورأيت الموت، أثبتُّ أني لست جبانا لكني غير مقتنع!

فبدت حميدة كأنها تلوم:

– قبل أول رحلة قلت لك هذا غلط لا تذهب ثم أخيرا اكتشفت أني على حق!

– طيب قد كان الذي كان لنترك الماضي!

– وأيش يا خوي كان الذي كان واحد يلقي نفسه في النار عمدا.

– طيب ماذا عن العمل وقد أصبحت الآن لست وحدك وقد تصبح أبا؟

– والدي معتمد في السلك الدبلوماسي وعضو في جبهة التحرير وخالي مدير شركة الغاز غير أعمامي وأقاربي الذين يحتلون مراكز مهمة أترى يعجزون عن أن يجدوا شغلا لزوجي وسيبقى في بيتنا حتى لو وجد عملا إلى أن أكمل وألتحق به؟

مهما يكن فقد قرأ براءتها في اللقاء الأخير معهما، فلا يظنها بعدُ قطعت رأس عبد العال ولا يتصور أنهما بقيا في الجزائر، من سوء حظه أنّ الموت الذي رَكِبَ السكاكين والفؤوس انتشر هناك ولم يعد بإمكان أحد أن يحشره في مكان ما فاضْطُرَّ صديقه إلى الهجرة.

وحده أو معها لافرق!

إحساس يدله على أنه يلتقيه كأنه جاء، وفق ترتيب ما يبحث عن

اثنين، صديقه القديم ونطفة منه كبرت وأصبحت تتكلم تحس تنطق . كائن حي ذو إحساس.. مشاعر.. امتداد له ظنه يكون فكان، أو ظنه لا يكون فكان، في حين لا تهمه قط نطفه الأخرى. الملايين التي ذهبت هدرا أو تلقحت ببعضها أخريات.

ليذهبن أنّى شئن.

بعض من اليأس أو بعض من الأمل.

مبكرا نهض في اليوم التالي. أعرض عن زيارة المختبر، وفكر بالقطار. الطريق إلى ليستر يمنحه بعض الراحة.. محاولة.. تخفق أو أو تنجح.. المكان ذاته لم يتغير.. وقفز في ذهنه خلال الهواجس المتضاربة خاطر سريع.. هبط إلى مركز المدينة، تناول فطوره في كافتريا كوستا.. ثمّ غادر يحث خطاه إلى مكاتب جامعة ترنت، تحدث مع موظفة تعنى بشون التسجيل أحالته إلى موظف رحب به، ونصحه أن يقصد شؤون المتخرجين حيث التقى موظفة بارعة الطول ضخمة تبدو قاسية الملامح لا تغطي ابتسامتها المفتعلة قسوتها:

– لِمَ جئت تسأل الآن؟

– ياسيدتي أعرف أن من حقك أن تشكي لاسيما أني قادم من مكان يعج بالقتل وقطع الرؤوس هذه الفتاة جوستينا ولدي صورة بطاقتها كما ترين كانت صديقتي حينما كنت أحضر الدكتوراه قبل أكثر من ثلاثين عاما في جامعة نوتنغهام وقد علمت فيما بعد أنها حامل مني ورزقت ببنت.

فقطبت حاجبيها ورفعت النظارة عن عينيها كأنها تتمعن فيه:

– ألم تتصل بها طوال هذه العقود.

فهز رأسه متواضعا لبديهيتها:

– سيدتي رجعت والبلد في حرب الخليج الأولى كتبت لها عدة رسائل خلال إجازاتي.. متأكد أنها أجابت لكن في مثل هذه الظروف يضيع كل شيء "استلّ يده من جيبه"وأردف هذا هو جواز سفري جئت زائرا للقسم الذي تخرجت فيه بتكليف من قسم البيولوجي وهذا هو رقم هويتها جوستينا مكنز لدي شهر واحد لو..

توقف عن الكلام، فتمعنت فيه بصمت ثم نهضت:

– انتظرني لحظة.

غادرت المكتب فبقيت عيناه تحلقان في لاشيء غابت عنهما صورة تشكيل ضوئي ارتسمت على الحائط وأنبوب الماء الذي هبط من الزاوية عند السقف، والشباك ذو القضبان المعدنية، كلّ ما في الغرفة يشدّه إليه يتشبّث به لعله يمنحه فسحة يطل منها على مشهد قديم صنعه بيديه ذات يوم فغاب عنه وعاد إليه بعد عقود، واستفاق أخيرا على وقع خطواتها وهي تداريه بابتسامة وتقول:

السيدة جوستينا مكنز أنهت دراستها في علم النفس عام ١٩٨٩ ثلاث سنوات حصلت على شهادة البكلوريوس ومن ثمّ سنة أخرى للدبلوم.. هذا كل ما لدى الجامعة!

فراوده أمل آخر:

– أتظنينن أنها عملت في التدريس؟

I don,t know

وحين لمس منها تجاوبا:

– أتنصحينني بالبوليس لعله ينفعني ببعض المعلومات؟

فهزَّتْ كتفيها كأنها تنطق عن حقيقة لاشك فيها:

Maybe

كلّ شئ يبشر بخير..

هناك أمل، فهل حدثت جوستينا ابنتهما نادية عن شارع ويلفرد، والبتزا. أبوك كان يوصل البتزا إلى البيوت. جلس كالطفل الوديع في غرفتي أول لقاء لنا.. تناولنا البتزا معا.. الإنكليز صرحاء. لم يكن يهمها إلف أخوها. العائلة كلها تعرف ممارستها البغاء، لم تنثني أن تقول إنه صديقها.. boy friend.. الآن يبحر في نظرات إلف إلى أخته. لقد تحداه تماما.. نظرة لا تثير ريبة رغم ما فيها من قسوة ، فهل ظنه فؤادا جاء من بلد خليجي ليعقد الصفقات مع أخته؟ سمسار دنيء.. هذا الخاطر لم يمر بباله من قبل . تأخر ثلاثة عقود حتى كاد يعكّر مزاجه الرائق، كلّ شيء يبعث التفاؤل وإن بدا يخفي ملامح غامضة تستعصي على الحلّ، وفي نهاية نهار بين البحث والسؤال يأوي إلى غرفته في السكن الجامعي. يومان مرّا، ولم يزر ليستر بل ألغى الفكرة تماما، لايشك أن السيدة جوزي توفيت، قد يظل يضغط على زر الجرس ولا يخرج إليه أحد وفي أحسن الحالات يقابله شاب..

عجوز يصغي إليه والشكّ يلوح على ملامحه. تضيع جهوده سدى. ثمانية وعشرون يوما مازالت في جعبته لعلها تجمعه بابنته وصديقته القديمة ثم بعبد العال أو قد يلتقيه قبلهما! استرخى على سريره ، وأغمض عينيه، ابتسم في سره ابتسامة المنتصر، قبل عقود حاصر اللشمانيا في علبة ولم يطلقها، وكمن يسير نحو المجهول حشر بعضا منه في علبة، بعدها انشطر وراح يبحث عن نفسه التي شطرها نصفين: واحد معه والآخر يقبع في قارورة صغيرة فكان من الممكن جدا أن يموت وينتهي إن لم تخرجه جوستينا أو أية امرأة مجهولة غيرها.

كان ينتظر..

وكأنّه ظلّ ينتظر دقائق فقط بل لحظات لا عقودا طويلة..

فجأة..

انقلبت ابتسامته إلى ضحكة قوية حادة ارتجت لها الجدران، وراح يتابع الأيام الباقية له وهو يضحك ضحكة المنتصر الذي يدرك من دون شكّ أنه سيعثر على كل شيء فقده ثم تذكر شيئا كاد ينساه:يوم حاصر اللشمانيا كان الوقت معه وفي متناول يده، ثلاث سنوات، وهويطالع كل يوم كائنا مخفيا لايراه أحدغيره،

يتأمله،

يراقبه بحذر، يخطو لقتله، أما الآن فتقابله- إذ حررته جوستينا دون أن يدري - أيام معدودة، فهل يغامر من جديد ليعثر على كلّ

شئ أم لن يجد صورته الأخرى؟

نوتنغهام

المملكة المتحدة

انتهيت من كتابة هذه الرواية في يوم:

الثلاثاء ٢٧ / ١١ / ٢٠١٨

مؤسسة المثقف العربي

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الإعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في ٢٠١٠/٠١/٠٥م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وايجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات أخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها.

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، ترفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الإنقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الإنسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري.

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسة المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات المؤسسة خارج أستراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد.

مبادئ مؤسسة المثقف العربي

- نؤمن بالتعددية والرأي الآخر.
- ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات.
- نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان.
- نحارب العنف والتحريض والتكفير.
- نرفض الخطاب الطائفي والأيديولوجي المحرض.
- نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض.
- نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث والتحديات، ونعرّف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه.
- أصدرت مؤسسة المثقف عددا كبيرا من الكتب، وهذا آخرها.

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

www.almothaqaf.com

almothaqaf@almothaqaf.com